الدعائم العامة لأى مجتمع

obeikandl.com

obeikandl.com

المجتمعات الإنسانية ليست سواء فى الدعائم التى تقوم عليها .

فقد يكون أحد العناصر ركناً فى مجتمع ما ، ونافلة أو محظوراً فى مجتمع آخر ! ثم إن الواقع الذى نصفه ونحن ندرس مجتمعاً ما ، قد يكون كريهاً لدى أصحابه ، فهم ـ لو استطاعوا ـ حوَّروا مجتمعهم إلى طور آخر أحظى لديهم وأدنى إلى رضاهم .

تُرَى ما يفعل الباحث ؟ أيذكر الواقع على علاته ، أم يقرر ما تصبو إليه النفوس فى تكوين مجتمع أرقى ؟

إن المجتمع حزمة من الأفراد يشد بعضها إلى البعض الآخر أكثر من رباط قائم .

وهذه العُرَى الموثقة تنشأ أولاً وآخراً من مشاعر النفوس ، واختيارها الحر ، لا ، بل الأمر أعظم من مجرد الاختيار ، إنه الرغبة الأصيلة العاقلة الدائمة فى أن يسهم المرء مع الآخرين فى إقامة هذا المجتمع والعيش له ، والعيش فيه .

وقد سرد العلماء فى عدة أمور رأوا أن المجتمع يتكون منها ، وأن الأفراد يرجعون إليها فى علاقاتهم النفسية بهذا المجتمع .

ونحن نحب أن ندرس هذه الأمور بأناة مُذكِّرين القارىء بما قلناه من أن المجتمعات ليست سواء فى دعائمها ، لأن ما يكون بواعث التجمع يختلف فى قطر عنه فى آخر !!

فمثلاً يخطىء من يعد اللغة من دعائم المجتمع فى الاتحاد السويسرى ، لأن هذه البلاد السويسرية تنتشر فيها عدة لغات .

لابُدَّ أن هناك أسساً أخرى يجتمع عليها أهل هذه البلاد يمكن أن يعثر عليها الباحثون .

من أجل ذلك كان إرسال حكم هذه الشئون بعيداً عن التمحيص العلمى !! ونستطيع على ضوء ما تقدم أن نسأل : هل الدين ركن فى القوميات المختلفة ؟ وإذا كان ركناً فهل هو ركن خطير ؟

قرأت للسيد كمال الدين محمود هذه الكلمة « الدين وحده لا يصلح أن يكون ركناً من أركان القومية .... » .

وإرسال هذا الحكم كأنه قاعدة عامة غير سديد .

فالتمحيص العلمى يفرض علينا أن نتدبر شتى القوميات قبل أن نرسل القول على عواهنه .

الدين فى روسيا ليس أساساً للمجتمع الشيوعى ، ولا شيئاً ثانوياً فيه ، بل هو منكر محارب ، وإذا شُمَّتْ رائحة التدين من رجل شيوعى أُقْصِى فوراً من عمله ، ونُظِر إليه على أنه خائن للنظام الذى تقوم عليه الدولة .

وبين ألف مليون يخضعون لهذا المبدأ الأحمر يمكن القول بأن الدين غريب على المجتمع ...

لكن هل الدين كذلك فى إسرائيل ، أو فى باكستان ؟ كلا . فاليهودية فى إسرائيل أساس المجتمع والدولة ، والإسلام فى باكستان كذلك . والدين فى كلتا الأمتين ركن ركين .. .

وقد تسأل : هل الكثرة العظمى من مجتمعات العالم تَعُدُّ الدين ركناً ؟ ونقول : نعم ، فالكثرة الساحقة من الدول النصرانية لا تفرط فى دينها ، ولا تستهين بإيحائه فى علاقاتها السياسية .

وإذا كانت إسرائيل تقوم على الدين اليهودى ، فإن المبدأ القائل : خُلِقَتْ إسرائيل لتبقى يعود إلى أحقاد صليبية ، وهو محور سياسة أمريكا وانجلترا وفرنسا بإزاء العرب جميعاً وإسرائيل .

وعندما نتحدث فى العناصر التى تتكون منها القومية العربية ، ونتعمد إطراح الإسلام منها ، فنحن مخطئون علمياً ، واجتماعياً ، وسياسياً .

ذلك أن العروبة لم تنفخ فيها الروح ، وتبرز إلى الحياة العالمية إلا مع الإسلام ، أما قبل الإسلام فوجودها الأدبى صفر ، ووجودها المادى فوق الصفر بقليل ، والسيد كمال الدين محمود وهو يحصى أسس القومية العربية فينفى الدين منها ، ثم يقول : « أما الركن الذى تقوم عليه القومية العربية فهو التاريخ المشترك والمصير المشترك ، هذا التاريخ الذى حمل صورة واحدة ، ومر على أدوار واحدة وصبغ هذا الوطن بصبغة واحدة منذ فجر الإسلام حتى اليوم » ..

نقول إن هذا الكلام يبطل ما سبق أن قرره هو من غربة الدين عن العروبة ، إذ هو كلام يصرخ بأن العروبة لم يسجل لها تاريخ إلا مع بزوغ فجر الإسلام .

وهذا حق ، فإن التاريخ لا يُسجِّل شيئاً للهباء .

وقومية لم يؤرخ لها إلا يوم ازدواجها بالدين كيف يعتبر الدين شيئاً كمالياً فيها ؟!

وقومية تحتاج إلى رباط الدين وهى تشق طريقها إلى المستقبل ــ كما يؤكد ذلك السيد كمال الدين محمود حين يقول : فمنذ ضمت الحركة الإسلامية هذه البقاع تحت لوائها ، ومصير هذه البقاع واحد ، تلاقى كل منطقة ما تلاقيه سائر الأجزاء ، ففى الماضى نظر إليها الغزاة على أنها « كل » وفى الحاضر ينظر إليها الاستعمار هذه النظرة ، قومية تلك طبيعتها كيف يزعم زاعم أن الإسلام ليس ركناً فيها ..

إننا سنرى عند شرح هذا الموضوع أن الإسلام هو الركن الأول فى بناء المجتمع العربى ، وأن ما يقال غير ذلك فهو شىء لا ثبات له عندما يعرض على محكِّ النقد .

فلا هو واقع الأمة العربية ، ولا هو مَثَلُها الأعلى .

ولا هو شعور الجماهير ولا هو ما ينبغى أن تحسه الجماهير ..

* * *

والدعائم العامة لشتى المجتمعات ــ كما تتبعها الباحثون ــ هى اللغة ، الجنس ، البيئة الجغرافية ، التاريخ المشترك ، الدين ، المصالح والآمال المتحدة .

وعنصر واحد من هذه جميعاً لا يقيم مجتمعاً له كيانه وخواصه ، لابُدَّ من توفرها كلها أو توفر أغلبها .

ونعود مرة أخرى إلى توكيد ما أثبتناه صدر هذا البحث ، وهو أن المجتمعات ليست سواء ، وأن الأحزمة التى تمسكها متفاوتة ، وأن الروابط الحقيقية تنبع من شعور الأفراد بقداسة المبادىء التى يلتقون عليها ، وبالتالى ينهض عليها البناء الاجتماعى للأمة .

ونحن نريد أن ندرس الدعائم العامة للمجتمع مستصحبين هذه المبادىء :

(أ) إيفاء الناحية العلمية حقها من الإيضاح والتمحيص .

(ب) تطبيق الحقائق العلمية على أوضاعنا العلمية دون تعسف .

(جـ) ملاحظة أننا عرب ، وأن أكثر من تسعة أعشارنا مسلمون .

وأن أمتنا لا تتخلى عن رسالتها الإنسانية الكبيرة ، ولا تحب أن يطالبها أحد بنسيان تلك الرسالة ، ولا أن يختلها [1] عنها بعناوين مضللة ..

١ ـ البيئة الجغرافية أو الوطن

للأرض التى نحيا فوقها آثار مشهودة فى تكوينها الخلقى ، وأحوالنا السياسية .

الأرض السهلة تُكسِبُ السكان شمائل لينة ، والأرض الوعرة تجعل فى طباعهم شدة .

ولأهل الصحراء سيرة تغاير مسلك أهل الجزر ، ولأهل المناطق الحارة أخلاق ومشارب ليست لأهل المناطق الباردة أو المعتدلة .

وقد وصف « أندريه سيجفريد » ـ وهو من علماء الجغرافية السياسية والإنسانية ـ حوض البحر المتوسط ، وأثره فى الشعوب التى تقطنه فقال [2] : « ... معتدل بوجه عام ، تكسوه سماء مشرقة الشمس ساطعة النور ، إلا أنه يتأثر بين الحين والحين بجو الصحراء » .

وقد يلفح هذا الحوض صيف محرق ، وهو الصيف الافريقى ، ثم لا يلبث أن يعتدل الجو ويميل إلى الهدوء ، ثم تعقبه زعازع وأمطار غزيرة بل سيول ، ثم تطلع الشمس وتظل تبعث فى المنطقة القوة والحياة ، وتبث فى النفوس حُبَّ النقاش وطول الجدال وهواية الخطابة !

ويؤدى هذا إلى أن يتطبع المرء بخلق خاص فى معاملاته ، وبرغبة فى التزام طرق مُعبَّدة فى الحياة الاجتماعية تتجلى فى إطاعة الحاكم بعد تفاهم مشترك بينهما . ثم

---

(١) يختلها : يخدعها .

(٢) سويلم العمرى بإيجاز .

يقول « سيجفريد » :بَيْدَ أن ما يطرأ على هذه الأقطار عن عواصف مفاجئة يفسر ثورة الأعصاب حيناً ووقوع المباغتات التى لا تتوقع .

إن هذه الطبيعة المتقلبة بين الصفاء والاضطراب والاعتدال والقسوة أضفتْ على شعوب هذا الحوض روحاً يغلب عليه السرور والضحك مع عبوس وتقطيب بين حين وآخر .

على عكس ما يُرى عليه أهل الشمال ، بجوِّهم المعتم البارد ، وسمائهم الملبدة بالغيوم ، وضبابهم الكثيف ، وليلهم الطويل ، وبُطء طلوع النهار وانقضائه ، فإن ذلك دفع بهم نحو الحذر المشرب بالهدوء وأورثهم التعاون المستمر فى سبيل مقاومة الطبيعة القاسية ، وضيَّق أمامهم فرص الفصاحة والجدال والاجتماع فى العراء والتناحر بلا هوادة فى الأسواق الجامعة ، وجعل اجتماعاتهم ومشاوراتهم مختصرة وهادئة » .

والكاتب الأوربى صادق فى ربطه بين البيئة وآثارها فى الناس ، وصادق فى تفرقته بين أخلاق اللاتين والسكسون .

والعرب فى أرضهم الفيحاء يعمرون مناطق شتى ، فيها الوِهَاد وفيها النِّجاد ، فيها الصحارى الجدبة وفيها الأودية الخصبة .

وقد ترى فروقاً بارزة فى طباع السكان هنا وهنالك .

لكن يروعك فى هذه الجماعات الكثيرة أن الإسلام أفرغ سلوكها العام فى قوالب متشابهة ، وقاد كل مزاج إلى ما يلطف به ويجمل فيه .

وأرجاء الوطن العربى يكمل بعضها بعضاً فى هذا المجال ، وتؤلف مجموعات متناسقة من المواهب التى تنجح بها أعظم الرسالات .

ومن المعجب أن ترى الإسلام أقدر عرب المناطق الحارة على الجهاد شهوراً طوالاً بين ثلوج القوقاز ، يمسحون على أخفافهم ويقصرون الصلوات .

ومع أن العرب ــ وهم يسكنون جنوب البحر المتوسط وشرقه ــ يشبهون أهل هذا الحوض من سكان أوربا إلا أن استقلال النفس العربية وقوة اعتدادها تجعل العرب فى هذا المضمار مساوين للإنكليز وللألمان وغيرهم من سكان الشمال .

* * *

والبشر يألفون أرضهم على ما بها ، ولو كانت قَفْراً مستوحشاً ، وحب الوطن غريزة متأصلة فى النفوس تجعل الإنسان يستريح إلى البقاء فيه ، ويحنُّ إليه إذا غاب عنه ، ويدفع عنه إذا هوجم ، ويغضب له إذا انتقص .

والوطنية بهذا التحديد الطبيعى شىء غير مستغرب .

وإنك لترى العربى من نجد يغالى بوطنه هذا ـ على فراغه من أسباب الرغد ـ وينظم عواطفه شعراً من أرقى ما روتْ الدنيا وسجَّلت صحائفها :

قِفَا ودَعا نَجْداً ومَنْ حلَّ بالحمى ... وحُقَّ لِنجدٍ عندنا أنْ يودعا
بنفسى تلك الأرض ما أطيبَ الرُّبى ... وما أحسنَ المصطافُ والمتربعا
وليستْ عشيّات الحمى برواجعٍ ... عليك ولكن خَل عينَكَ تَدْمعا
بكتْ عينى اليُسْرى فلما زجرتُهَا ... عن الجهل بعد الحلمِ أسبلتَا معا

ويقول آخر :

تمتَّعْ من شميمِ عَرَار نَجْدٍ ... فما بعد العشيَّة من عَرَارِ
ألَا يَا حبَّذا نفحاتِ نجدٍ ... وريا رَوْضهِ بَعْدَ القطارِ
وأهلك إذْ يحل الحىَّ نَجْدا ... وأنتَ على زمانِكَ غير زَارِى
ليالٍ ينقضِينَ وما شعرنا ... بإنصافٍ لهُنَّ ولا سِرَارِ

هذه السعادة بالعيش فى الوطن ، وتلك الكآبة لتركه ، مشاعر إنسانية لا غبار عليها ، ولا اعتراض .

ولكن العصور الحديثة طورت هذا المعنى الساذج ، وجعلت الوطنية ولاء للتراب ، وعبادة له ، وقياماً بحقوقه ، وتفانياً فيه ، والعمل به .

أى جعلت الوطن إلهاً والتعلق به عبادة ، وضخَّمت المشاعر الإنسانية حول هذا المحور المسحور بحيث ابتلعت علاقات الناس بدينهم ، فإذا لم تفلح فى إزالتها أفلحت فى تأخير رتبتها ، وإخفات الكلام عنها ، وإماتة أحكامها ووصاياها .

وهذا الضرب من الوثنية ينكره الإسلام أشد الإنكار ، إن ارتفاق البشر من مكان ما لا يطوع لهم عبادة هذا المكان ، وقد كان قدماء المصريين غافلين عندما عبدوا نهر النيل لطول ما ينتفعون منه .

والمعروف عند أولى الألباب أن الأرض ملك الإنسان وليس الإنسان ملك الأرض ، وأن المرء قد يخسر هذه الأرض التى يعيش عليها فى ظروف حرب ، وساعات هزيمة ، ولكنه يستعيدها ليحيا فوقها كما تشاء له مثله العليا ، لا كما تشاء له الصخور والرمال ، أو المياه والأزهار .

فى أى بلد نوجد ، وعلى أى أرض نحيا ، ليس لنا إلا رب واحد هو الله جَلَّ شأنه ، الذى يقول لنا :

﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ** ﴾ (١) .

والذى يقول : ﴿ **إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ (٢) .

وولاؤنا النفسى ، وسلوكنا العام ، ينبجسان من هذا الإيمان السماوى المحض .

الوطنية التى تعتمد على هذا المعنى مناط احترامنا ، لأن الأمر فيها تعلَّق بأرض اهتزت بشرائع دين ، وحضارة أمة فالارتباط هنا له دلالته ومغزاه ..

أما الوطنية بالمعنى المجتلب من الغرب فهو مستحدث فى حضارتنا وتاريخنا لا نُقِرُّه ولا نرضاه .

اتحـاد الجنـس

المرء بمن يشاكله آنس ، وهو عليه أعطف . وعندما تتشابك القرابات وتتشابه الدماء يشد المجتمع بعضه بعضاً ، ويحس الجميع كأنهم أسرة كبيرة .

وفى عصرنا هذا سُمِعَتْ صيحات عالية بالتجمع على أساس الجنس ، وتكرر هذا النداء فى الشرق والغرب .

ولعل التجانس بين العرب على تباعد الأقطار فى مقدمة الأسباب التى تذكر لجمع شتاتهم ، وتوحيد لوائهم .

وليس ذاك بدعاً فى تاريخهم ، فإن العرب اشتهروا من قديم بحفظ الأنساب ورعاية الأصول .

---

(١) العنكبوت : ٥٦ .

(٢) الأعراف : ١٢٨ .

فإذا تنادوا اليوم على أساس أخوة الدم فتلك سجية فيهم غير محدثة .

ومن ربع قرن كان الألمان يتجمعون على أساس جنسى صارخ ، فقد زعموا أنهم من دم خاص ، وأن عنصرهم أرقى من سائر العناصر الإنسانية !!

ونحن مع تقديرنا لوحدة الجنس فى بناء مجتمع نحب أن نلفت النظر إلى جملة حقائق ..

(أ) أن الزعم بوحدة الأصل فى جنس ما خرافة كبيرة ، فإن جماهير البشر يموج بعضها فى بعض موجاً يخلط الأنساب ويمزج الدماء ، ويجعل لهذا ـ على تغلغل الأنساب فى الغيب ـ أباً من المشرق أو أماً من المغرب .

والقول بأن أوربا ليس لهم آباء أو أجداد من آسيا مثلاً زَعْمٌ لا دليل عليه ، وكذلك القول فى سكان شتى القارات ، فإن أنواع الهجرة وألوان الحروب تركت للعالم آثاراً لا حصر لها .

يقول الدكتور أحمد سويلم العمرى : « لم يَعُدْ هناك جنس نقى صَافٍ يمكنه أن يفخر بنقاوته على سائر الأجناس ، ففرنسا خليط من الجرمان والسلت والعرب والوندال ، وألمانيا فيها خليط من المغول والتتار والصقالبة ، وانجلترا خليط من جماهير الغزاة الذين اقتحموها من الشمال والشرق والجنوب ، بل بها بقايا من الرومان الذين غزوها على عهد يوليوس قيصر ... الخ » .

(ب) ولنفرض جدلاً أن هناك محاضن خاصة تلقفت جنساً معيناً من الناس فصانت ذريته وحفظت أصوله وفروعه . ماذا يعنى هذا ؟

إن هذه العزلة تشينه ولا تزينه ، فإن الجنس المغلق على نفسه ، يفقد عوامل التجديد التى تزوده على اختلاف الليل والنهار بمواهب إنسانية أخرى يفتقر إليها ويَقْوى بها .

ولأمر ما كان الزواج بالأباعد أحظى وأجدى من الزواج بالأقارب .

أما توهم أن جنساً ما خُلِقَ خَلْقاً أرقى من غيره ، ومن ثَمَّ فهو حقيق بالسيادة على باقى البشر ، كما أن البشر أحقاء بالسيادة على شتى المخلوقات .. فذاك كذب يجب أن يستحمق قائلوه .

(جـ) ومن حسن حظ العروبة أنها جنس مفتوح ، وأن الاستعراب ركن أصيل

فى دعم كيانها وإمدادها بأسباب البقاء والنماء ، ونحن نعلم أن صاحب الرسالة العظمى ﷺ من العرب المستعربة وليس من العرب العاربة .

من أجل ذلك لا يمكن جعل العروبة قومية خاصة .

إن الإسلام جعل منها دائرة عالمية فسيحة الأرجاء ، وسعَتْ شتى الدماء والألوان ، وانضوى تحت لوائها سيل موَّار من المؤمنين الذين تركوا بنى جلدتهم ، وآثروا هذه الجنسية الجديدة ، وأسدوا إليها من الخدمات العلمية والأدبية والسياسية والعسكرية ما يعجز عنه قوم ترجع أرومتهم إلى عاد وثمود ، أو عدنان وقحطان [1] .

★ ★ ★

إن النزعة الإنسانية العريقة فى مجتمعنا العربى ، تعود إلى عالمية الرسالة الإسلامية وتطلعها الدائم إلى استيعاب عناصر بشرية مختلفة النسب واللون ، ووفاء العرب الأولين بمطالب هذه الرسالة ، وانفساح صدورهم لكل وافد على الإسلام داخل فى العروبة .

ولذلك يرفض العربى المؤمن أىَّ تعصب جنسى ، وأىَّ استعلاء عنصرى . ويقول :

أَبَى الإسلامُ لا أبَ لى سِواهُ إذَا افتخَرُوا بقيسٍ أوْ تميمِ !

ثم إن الإسلام يأبى كل الإباء أى دعاية جنسية ، ويعتبر من أعراض الجاهلية البائدة أنْ يتداعى الناس بدمائهم وقراباتهم ، فإن شرف الإنسان ليس فى حَسَبٍ مزعوم ، أو نسب موهوم ، إنما هو فى صفاء قلبه ، وسناء لُبِّهِ .

﴿ **لَنْ تنفعكُم أرْحَامُكُمْ وَلا أوْلادُكُم ، يَوْمَ القيَامَةِ يَفصِلُ بَيْنكُمْ واللهُ بِمَا تَعْمَلونَ بَصير** ﴾ [2] .

ولا ريب أن المجتمع العربى قد ازدهر بهذه النزعة الإنسانية النبيلة ، وأفاد منها

---

(١) اقرأ هذا البحث فى كتابنا « مع الله » .

(٢) سورة الممتحنة آية ٣ .

أجلّ فائدة ، وما من نشاط مادى أو أدبى أو علمى برز فى هذا المجتمع وعلا به قدره إلا كان المستعربون من ورائه .

تلمح ذلك جلياً فى علوم الشريعة ، وفنون الأدب ، وآفاق العمران ، ومناحى الفلسفة ، وفى أرجاء حضارتنا التى نملأ أفواهنا بها فخراً ...

لقد كنت فى مكة أرى أغلب الملامح البشرية حول البيت العتيق .

ونظرت يوماً إلى مئات المساجد فى القاهرة عاصمة العروبة والإسلام ـ فرأيت جل بناتها من الأعاجم ـ بمعادنهم الأولى ...

وغلغلت البصر فى مواريثنا النقلية والعقلية فرأيت سدنتها من أولئك الرجال الذين دخلوا العروبة من أبواب الإسلام وجعلوا العروبة بهذا المدخل الكريم ملتقى سامياً لأنضر ما عرفت الحياة من جهد ، وأشرف ما وعَتْ من غاية .

« ففى كل من الفقه واللغة والأدب والتاريخ وغيره من العلوم والفنون نعرف من الأعلام أمثال :

الزنجانى ، والشيرازى ، والأفغانى ، والسندى ، والأذربيجانى ، والفيروزآبادى ، والزمخشرى ، والبغدادى ، والحلبى ، والصفدى ، والأشمونى ، والقلقشندى ، والجبرتى ، والصقلى ، والقيروانى ، والمراكشى ، والصنهاجى ، والقرطبى ، وألوف سواهم لو عُيِّنَتْ مواقع بلادهم على المصور الجغرافى للكرة الأرضية لاستغرقت أكبر جانب .

ولو أننا عمدنا إلى فرع من فروع العلوم والآداب العربية فرسمنا مصوراً جغرافياً لمن اشترك فيه من خلق الله على ظهر الكرة الأرضية ، لاستبانت لنا عالمية الفكر العربى الموحد فى هذا الفرع العلمى أو الأدبى ، لا فى عصر بعينه بل فى شتى عصور التاريخ .

ومن الحق أن نصارح بأن هذه العالمية الفكرية ، وهذا التلاقى على وحدة جامعة فى المنحى والاتجاه ، كان كلاهما بمنأى عن الأحداث والكوائن التى تعاقبت على الأمة العربية خلال القرون ، فشتت شملها ، وبددت عِقْدها ، وتركتها نهبة للفرقة فى الحكم والسلطان .

لقد استعلت وحدة الفكر العربى وعالميته على تنازع السلطات والدولات . فبقيت الأمة العربية ملتئمة الوحدة ، تتبادل الفكر والرأى فى ضروب الثقافة ، على الرغم من اختلاف الوجوه التى تؤول إليها الإمرة والسلطان .

ولاشك فى أن هذه الوحدة الفكرية كانت سمواً بالإنسانية إلى مستوى العالمية الرفيع ، ذلك المستوى الذى ينادى به قادة الرأى ، ويحلم به زعماء الإصلاح ، ويهتف به الفلاسفة الدعاة إلى غَدٍ أسعد ، وعالم أفضل .

فقد كانت تلك الوحدة عاملاً من عوامل التجمع والتكتل والتقارب ، وعنصراً من عناصر التفاهم والتفايد ، وسبيلاً إلى أخوة فى الروح .

والأخوة الروحية فوق أخوة الدم والنسب ، وفوق الأخوة المحلية ، المحدودة بحدود الوطنية الضيقة ، لأنها أخوة قائمة على دعائم من العقل والمنطق ، مستندة إلى مدد من الرأى والفكر ، مستجيبة لهواتف الوجدان ، مستهدفة المثل الأعلى للحياة فى تضامن وتعاون وسلام [1] .

اللغـــة :

ومن الميسور أن تكون اللغة عاملاً فعالاً فى وحدة شعب ، وإقامة مجتمع ، وبعض الأمم الآن يرجع تكوينها إلى اللغة .

وإن كانت اللغة الواحدة لم تجمع بين الإنكليز والأمريكان مثلاً كما أن اختلاف اللغة لم يمنع قيام دولة واحدة فى بلجيكا أو فى الهند .

واللغة العربية وسيلة عظيمة لالتقاء العرب فى صعيد واحد ، ولكن هل هى الأساس الأول فى بناء العروبة كما يقولون ؟

إن ترتيب الأساس التى يُشَادُ عليها مجتمع ما ليس أمراً ذا بال إذا كانت هذه الأسس أشبه بقوائم المنضدة ، لا تستقر فى مكانها إلا بهنَّ جميعاً .

وصحيح أن اللغة أداة التفاهم والتعارف ، ومَجْلَى الآداب والعلوم ، والوسيلة الفذة لتواصل العقول والمشاعر بين الأفراد والجماعات فى كل ما يعنيهم من شئون الحياة .

---

(١) من رسالة لمحمود تيمور .

لكن الوسيلة الموحدة تسبقها المشاعر الموحدة والأفكار الموحدة ، وهذا ما سوف نتحدث عنه بعد قليل .

أما اللغة بالنسبة لنا فمن آلاء الله على العرب أنْ جعلها لسان الوحى ، وترجمان الهدى الباقى على الزمان .

ونشأ على صيانة اللغة وإضفاء القداسة عليها أن احتفظت بكلماتها وقواعدها ونماذجها العليا من زمن لا يؤثر مثله للغة أخرى .

فلو أن عربياً مات من ألف وأربعمائة سنة قُيِّض له أن يعود اليوم حياً ، لوجد لغة القرآن هى هى ، ولوجد أداءها الموسيقى لم يتغير قليلاً ولا كثيراً ، ولوجد اللغة العربية التى ألف لفظها وجَرْسَها على النحو الذى ألف ، لا يغض من ذلك أن اللهجات واللحون تنتشر بين الرعاع,وأشباههم من صَرْعَى الثقافة الفرنجية وتلك حال لا تُعرف للغة أخرى كالإنكليزية والفرنسية وغيرهما .

وللعربية مَيْزة أخرى !

إنها موعودة بالخلود من رب العالمين ، فهناك لغات بائدة أو شبه بائدة ، ولغات دخلت فى أطوار تقطعها عن أصولها الأولى .

أما اللغة العربية فسوف تبقى بنحوها وصَرْفها وخطها وبيانها وبديعها ومعانيها ما بقى فى الحياة إيمان ، وما بقيت للإيمان أتباع وألسنة .

وكانت اللغة العربية التى نتكلمها الآن شائعة فى وسط الجزيرة العربية وشمالها خلال القرون السابقة لبزوغ الإسلام .

أما اليمن وجوارها فكانت لأهلها لغة مخالفة ، وشاءت الأقدار أن تضطرب الأحوال السياسية فى الجنوب العربى ، وأن تضمحل قواه الخاصة ، فواتت اللغة العربية ظروف حسنة جعلتها لغة سكان الجزيرة جميعاً ، ولعل ذلك كان إعداداً للرسالة التى انشقت عنها الغيوب ، وتضافر على إبلاغها أهل الجنوب والشمال على السواء .

وبظهور الإسلام واندماج العروبة فيه شرعت اللغة العربية تأخذ مكانتها العظمى من لسان محلى لقوم محدودين إلى لغة عالمية تجتاز التخوم وتطوف بالمعمور من أرض الله .

وهى الآن اللغة السائدة فى وطن يستوعب أخطر بقاع الأرض ، واللغة المقدسة لخمس سكان العالم تقريباً .

والمكانة التى اقتعدتها اللغة العربية جعلت أعداء الإسلام يتصلبون فى مقاتلتها ويحاولون بالجهر أو بالغيلة أن يأتوا عليها ، كما شرحنا ذلك آنفاً .

وقد أقنعوا اليهود العرب أن يستحيوا العبرية القديمة ، وأن يجردوها من أكفانها لتكون لغة معاصرة .

كما أقنعوا فريقاً من النصارى أن يؤثر الفرنسية على العربية .

ووضعوا خططهم لتخريج أجيال مريضة الذوق الأدبى ، بل عاجزة عن الأداء السليم .

ويجب أن نستميت فى دفع هذا العدوان ، وأن نقدر القيمة العظمى لوحدة اللغة ونصاعة أسلوبها ، ونقاوة آدابها ، واستقامة نثرها وشعرها ...

إننا ـ بعد ما بلوناه من دسائس ـ نؤكد للمتعلمين الجدد هذه الحقيقة المهمة : إن الخطأ فى اللغة العربية نقص فى المنزلة ، وخدش فى المقدرة .

وأن الإصرار على هذا الخطأ معصية لله وإيهان لعرى الإسلام .

وإن إشاعة الإفك حول قيمة اللغة ، أو الحط من مثلها العليا فى البلاغة أو ترجيح النزعات الفرنجية عليها ، سيئات يقترفها أناس غاشُّون لهذه الأمة ومبتغون لها سوء العُقْبى .

إن الوحدة اللغوية والأدبية أظلت وطننا العريض أعصراً طويلة ، وكانت طابعاً لهذا الامتزاج الرائع فى أسلوب التعبير ، ونسق الأداء والتلقى .

فكيف نسمح لبعض الهازلين أن يشغبوا على هذه الوحدة ، بإثارة اللغط حول هذه اللغة الكريمة ، أو إثارة الريبة فى مواريثها الأدبية ؟

إننا محزونون لأن محترفى الصحافة سقطوا بطبقة البلاغة ، ولأن الشعر بعد حافظ وشوقى ليست له أسواق رائجة .

وكم من ملكات فى النثر والشعر ماتت فى مكانها لأنها لم تَلْقَ ما يفتح براعمها وينمى أعوادها ..؟

أما ما بلغته الوحدة اللغوية والأدبية فى عصرنا الأول ، وما أسدته أرجاء الوطن

العربى كلها فى إنمائها وإذكائها فيقول فيه الأستاذ تيمور :

« والحضارة العربية فى الأدب مثلاً كانت شركة بين أطراف بلاد العروبة لكل بلد فيها إسهام ، ولكل بلد مقام . فالشريف الرضى ، وابن الرومى فى العراق ، وأبو تمام وأبو العلاء فى الشام ، وابن هانىء ، وابن رشيق فى المغرب ، وابن سناء الملْك والبهاء زهير فى مصْر . كل أولئك وأضرابهم شعراء تعاونوا على إقامة عمود الشعر العربى ، وإعلاء بنيانه ، فبقى على الزمان وطيد الأركان .

ولربما اختلف الشعراء فيما لهم من ملكات وخصائص ، وفيما تأثروا به من بيئة وجو ، وفيما استجابوا له من حوافز الحياة والمجتمع ، ولكنهم يلتقون جميعاً على وحدة تعبيرية أصيلة ، ووشائج فكرية وثيقة ، وأوضاع شعرية ثابتة ، بحيث تؤلف من أنماطهم ديواناً عليه طابع التوافق والانسجام ، وإن اختلفت ألوانه اختلاف ألوان الزَّهْر فى عرش الربيع .

ولقد كان من أثر هذا الطابع المتوحد المشترك فى الشعر العربى أن استساغ قارىء العربية فى أقصى الصين ما ينشده شاعر العربية فى ربوع الأندلس ، مستمتعاً بما فى ذلك الشعر من أخيلة واستعارات ومشاعر تزدهر بها الشخصية العربية فى كل عصر ، ويتكوَّن منها الطابع العربى فى كل مكان .

ونحن نعرف أن ابن عبدربه ألَّف كتابه « العِقْد الفريد » وهو فى قرطبة ، مختاراً لآلئه ويواقيته وزمرداته من أدب الشرق خاصة ، ولقد اختارها مما بين يديه ، ومما حواليه ، ما نقل إلى الشرق قدماً ، ولا عُرِف عنه أنه كاتب من الشرق أحداً . ولم يكد يخرج كتابه إلى الناس حتى تسامع به المشارقة ، وطلبه الصاحب ابن عبَّاد فلما تصفَّحه قال :

« هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا » وما أنصف الصاحب فى قوله ، فإن الكتاب فيه عبقرية التأليف والاختيار ، وفيه فوق ذلك شعر صاحب العِقْد نفسه .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه القصة التاريخية تدل على حقيقتين :

أولاهما : أن أدب المشرق كله كان يملأ المغرب كله .

والأخرى : أنه ما يكاد يخرج كتاب فى المغرب حتى يتلقفه أهل المشرق ، وفى هذه وتلك برهانان على وحدة الفكر العربى وتواصله ، وإن تباعدت الديار » .

الديـــن :

هل الدين ركن فى بناء الأمم وتأسيس المجتمعات ؟

إن هذا السؤال يُسَاق عاماً ، أو مُبْهماً ، وترسل الإجابة عليه كذلك عامة أو مُبْهمة !

ونحن نرفض الغموض والإجمال فى ذلك المجال ، ونحب أن نسأل بدورنا : ما هو الدين المراد ؟

إن فى العالم اليوم عدة أديان سماوية وأخرى أرضية .

وهذه الأديان ـ بغضِّ النظر عن وصفها بالحق أو بالباطل ـ تختلف فى صلتها بالحياة العامة اختلافاً كبيراً .

فمنها ما عَدَّ الأنظمة السياسية والاجتماعية والأسرية من صميم تعاليمه .

ومنها ما اكتفى بالناحية الخلقية والشخصية ، بالإضافة إلى عقائده .

ومنها ما أنكر الألوهية وعالم الغيب .

ومنها ما أغرق فى الروحية وأوصى بالتجرد ..

ومن ثَمَّ . فالحكم بأن الدين ، أى دين ، يبقى فى المجتمع أو يذهب ، حكم غريب ، إنه حكم بالإعدام أو بالحياة فى قضية لم يعرف فيها المتهم معرفة محدودة بيِّنَة ، ولم يحرر ما نسب إليه أو وُصِم به !!

ونحن نعلم أن قوماً ضاقوا بدينهم فقرروا نَفْيه من الحياة العامة .

أو بتعبير آخر ـ ضاقوا برجال دينهم فقرروا إبعاده وإبعادهم عن الحياة العامة فهل يرغب بعض المقلدين فى تكرار القصة نفسها دون وعى ؟ ودون سبب ؟

إن الإلحاح فى إبعاد الإسلام عن المجتمع والزعم المتكرر بأن الدين ـ وهو الإسلام فى بلادنا ـ ليس ركناً فى قيام الأمة العربية يُذكِّرنى بقصة الحمار حامل الاسفنج عندما أراد التخفف من حمله كصاحبه حامل المِلْح ، فقد مَرَّ هذا بمجرى الماء فذاب نصف ملحه ، وتبعه ذاك ـ بعقله الثقيل ـ فترنَّح لكثرة ما حمل الإسفنج من ماء !

إذا قررت الصين تَرْكَ البوذية صاح فى القاهرة غِرٌّ يطلب تَرْك الإسلام لأنهم هناك تركوا الدين ؟

إن التاريخ يحدثنا عن المذابح الدينية التى طحنت الجماهير فى أوربا .

ويحدثنا أن حرية الاعتقاد لم يكن لها وجود خلال العصور الوسطى فى تلك الأقطار التى مزقتها المنازعات الدينية الرهيبة .

ورأينا فى نهاية القرن السادس عشر بعد صدور قوانين « نانت » فى فرنسا ، أن هذه القوانين التى تطلق سراح العقائد وتسمح للفرد باعتناق الدين البروتستنتى فى الدولة الكاثوليكية دون حرج معناها : أن اعتناق الفرد البروتستنتية ــ وهى ليست دين الملك ــ يجبره فعلاً على الرحيل عن البلاد ، آخذاً أمواله ، غير متعرض لأذى .

فهل إقصاء المسيحية عن الحكم ــ لأنها تضنُّ على بعض المواطنين بالبقاء فى بلادهم ــ ينسحب على الإسلام الذى استطاع يهودى فى ظله أن يرفض بيع متاع لرئيس الدولة إلا برهن ؟ فجاء صاحب الرسالة بدرعه رَهْناً للطعام الذى احتاج إليه وأخذه اليهودى وهو فى دار الإسلام آمن على ماله وعِرْضه ودينه ونفسه وولده وحاضره ومستقبله ، وذلك قبل قوانين « نانت » بتسعة قرون .

وهل هذا الدين يُتَّهم بأنه يصادر حرية الاعتقاد ؟ ثم يجىء مغفَّل يلبس مُسُوح البحث العلمى فيقول : إن الدين فى الغرب قد أبعد عن المجتمع وأمسى لا ركناً فيه ولا نافلة فَلْيطبق ذلك على الاسلام !!

إن « أوربا » لم تبدأ راحتها إلا يوم عزلت الدين عن الدولة وعن العلم وعن الاقتصاد ، لأن المسيحية ظلت إلى القرن السادس عشر من تاريخ أوربا مصدر قلاقل اجتماعية وعقلية انتهت بها إلى هذا المصير .

أما الإسلام بالنسبة إلى العرب خاصة فقد أحياهم مادياً وأدبياً ، ورفع أقدارهم بمبادىء الحرية العقلية والنفسية التى طلعوا بها على العالم طلوع البدر فى الظلام ، أو طلوع الشمس فى الغمام ، فكيف يجرؤ أحد على بخس حقه ونقص فضله ؟

ولندع تلك الغضبة ، ولنناقشَ الموضوع نفسه ، ولنكشف ما وراءه من بواعث !

* * *

إنك لن تعدم شخصاً يقول لك : كيف نجعل الإسلام ركناً فى المجتمع العربى ، والعرب ـ وإن كان أكثر من تسعة أعشارهم مسلمين إلا أن فيهم من لا يدين بالإسلام ..

والجواب البديهى على هذا السؤال العجيب أن الإسلام عقيدة ونظام ، وأن نظامه يسمح للمسيحى أن يعيش تحت رايته « مُثلِّثاً » كما يسمح للمسلم أن يعيش تحت رايته « مُوحِّداً » سواء بسواء .

ومعنى أنه نظام أن تعاليمه ترسم صورة معينة للمجتمع فى شتى نواحيه القانونية ، فربما أَلِفَ المسيحى أن يعيش فى ظل قانون لاتينى أو سكسونى أو صينى أو هندى ، بل هو مأمور أن يطمئن لعقيدته وحدها يترك ما بعدها حسب الآية المشهورة : « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .

أما المسلم فهو مكلَّف بالعيش فى ظل قوانين فصَّلها دينه تفصيلاً ، ولا ضَيْر على غيره أن يشركه فى مجتمعها ، فهى على الأقل تمثل « ما لقيصر » أى تمثل الدولة التى تحفظ على المسيحى عقيدته ولا تقوم على لون من الحكم يناقضها .

إن المسيحى لا يعنيه ولا يغضبه أن يُحكَم على الزُّناة واللصوص بالحبس ، ويستطيع العيش رَخِىَّ البال فى ظل قانون وضعى من هذا القبيل .

ويستطيع أيضاً أن يعيش رَخِىَّ البال طيب النفس فى ظل قانون آخر يستمد من الإسلام عقوباته .

فإذا لم يَرهَا وحياً من السماء كما نعتقد فَلْيرها من صنع الناس كما يشاء .

والمهم أن عقيدته مصونة ، وذاك يتوفر له .

وأن عقيدتنا وشريعتنا ـ وهما دعامتا الإسلام ـ مصونتان ، وذلك ما نريده وما لا يكرهه أو ما لا يعنيه !!!

إن شرائع الإسلام تتناول أكثر من قطاع فى النشاط الإنسانى ، ومنذ بدأ الإسلام وأوامره ونواهيه تتناول أنواع السلوك الخاص والعام ، فهو دين اجتماعى لا شخصى .

والكلمة الحمقاء التى تقول : أقصوا الإسلام عن المجتمع ، إنما تعنى القضاء عليه وعلى المجتمع معه .

وربما قال قائل : نحن نريد إقصاء الأديان عموماً عن المجتمع .

وذاك قول مضحك إنه كالحكم على تاجرين بترك الميدان وإغلاق محالهما . أحدهما يملك مائة ألف والآخر لا يملك فِلْساً .

إنه فى الحقيقة حكم بقتل أحدهما وَحسب .

أما الآخر فلا ضَيْرَ عليه ! ماذا خسر ؟؟

قرأت لكاتب من أصحاب هذه الأسماء التى لمعت بغتة إحصاء مفتعلاً لأركان القومية العربية تعمَّد فيه إغفال الدين ، بل تعمَّد فيه إبعاد الدين .

وأنا أدرى ، كما يدرى غيرى ، أن العروبة سبقت الإسلام ، وأن أبا جهل وأبا لهب وغيرهما من أهل الجاهلية كانوا عرباً لا شك فى عروبتهم ـ ولم يكونوا مسلمين .

ومعنى ذلك أن العروبة تحققت من غير دين .

والسؤال الذى وثب إلى ذهنى .

هل المراد أن نرتد إلى الجاهلية وأن نطرح عن كواهلنا ، أو نُقصى عن ضمائرنا هذا الدين الذى شَرَّفنا الله به ؟ .

إن كان ذلك مراد بعض الناس ، فلماذا لا يقولون فى صراحة : إننا نبغى العود إلى الجاهلية ومحو الإسلام من صحائف التاريخ بعد محوه من حنايا الصدور وزوايا المجتمع ؟.

لكن مَن الذى يريد ذلك ؟

إن إحصاء مقومات مجتمع ما يكون بعد الاطلاع على واقع هذا المجتمع وعلى آمال أفراده وجماعاته .

فهل نَبْذ الإسلام من المجتمع هو واقع العرب المسلمين أو هو أملهم فى الحياة ؟

كلا ، إن جماهير المسلمين العرب مازالوا يفتدون دينهم بالنفس والنفيس .

وربما صَعُبَ عليهم ـ لظروف موقوتة ـ أن يقيموا شرائعه كلها ، فهل جحدوا ما عجزوا عن إقامته ؟ كلا ، إن أملهم الحار ومثلَهم الأعلى أنْ يعيشوا فى ظلال الإسلام وهو كُلٌّ لا يتجزأ .

فلحساب مَنْ هذا الإلحاح الملحوظ من بعض الناس فى إبعاد الإسلام عن العروبة ؟ أو بعبارة صريحة فى دفع العرب المسلمين إلى الجاهلية الأولى ، أو إلى جاهلية حديثة ، فيها قشور من العلم المجلوب ، وفيها ركام بعد ركام من الأهواء والخبائث ؟

بديهى أن ذلك لحساب الجهات التى تكره الإسلام قديماً وحديثاً ، الجهات التى قال الله فيها :

﴿ وَلا يَزالُونَ يُقَاتِلُونكُمْ حَتىَّ يَرُدُّوكمْ عَنْ دِينِكُم إنِ اسْتَطاعُوا ﴾[1].

غاية ما هنالك أن هؤلاء القوميين يصيحون : لا تقتلونا ، نحن سنقتل أنفسنا ، لا تحاربوا الإسلام ، نحن سنحاربه .

فهل نحن من الغباء حتى نردد معهم هذه الصيحات ؟؟

إن القومية العربية بهذا المفهوم الكفور لا وجود لها إلا فى أذهان بعض المارقين الآثمين .

وهى – بهذا المفهوم – خدعة صليبية لختْلِ الجماهير عن دينها الحبيب .

نعم ، هى بهذا المفهوم « عُمْلة » زيَّفتها « أوربا » الحاقدة على الإسلام ، وروَّجتْها بين قِصار النظر ، أو ضِعاف اليقين ، لتجعل منها بديلاً تلتف حوله الجماهير ، بدل أن يلتفوا حول « إسلامهم » ويتعلقوا بأهدابه .

وهذا الذى نقوله يعرفه كثيرون من الخبراء بالسياسة الغربية تجاه الشرق .

« [2] نشر الدكتور عبد اللطيف حمزة ، أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة مقالاً

---

(١) البقرة : ٢١٧

(٢) القومية العربية للدكتور على الخربوطلى بتلخيص وإيضاح .

فى جريدة الأهرام بعنوان (الجامعة الإسلامية والجامعة العربية) جاء فيه :

فى الربع الأخر من القرن الماضى ، والعشرة الأوائل من القرن الحالى ظهرت فى سماء الفكر السياسى المصرى أفكارٌ ثلاثة هى سلسلة متصلة الحلقات ، وهى فكرة الجامعة الإسلامية ، وفكرة الجامعة العربية ، وفكرة القومية (أو المصرية) . واقترنت فكرة الجامعة الإسلامية بظهور السيد جمال الدين الأفغانى . الذى يقول المؤرخون : إنه جاء يبشر بدولة إسلامية عريضة فى ظل خلافة عثمانية قوية . وهى فكرة كان يمكن تحقيقها لو أوتيت تركيا يومئذ من القوة المادية والمعنوية ما يكفل لها ذلك .

ومنذ خابت آمال أوربا فى الشرق الأقصى ــ أى الصين واليابان ــ اتجهت آمالها الاستعمارية إلى الشرقين الأوسط والأدنى . فصوبت إليهما سهام الاستعمار . ثم نهض المسلمون فى بلادهم . وخشى الاستعمار الأوربى نتائج هذه النهضة . وعندئذ أصبح للجامعة الإسلامية معنيان : أحدهما فى أذهان المسلمين فى الشرق ، والثانى فى أذهان الأوربيين فى الغرب .

فأما المعنى الأول لفكرة الجامعة الإسلامية فى أذهان المسلمين فهو النهوض ببلاد الإسلام نهوضاً تستيقظ به من سباتها . وتتخلص به من النفوذ الأوربى الذى كان عاملاً حقيقياً فى تخلفها . لا فى تقدمها كما زعم القوم . وأما المعنى الثانى لفكرة الجامعة الإسلامية . فهو ما وقر فى مشاعر الغربيين وأفكارهم من أن الإسلام يعاود زحفه القديم . ويتهدد كيانهم الروحى ونفوذهم السياسى ... ثم إن النزاع الدامى الذى نشب طويلاً بينهم وبين الأتراك لا يتيسر محوه من الذاكرة . ومن ثم قاوموا فكرة الجامعة الإسلامية مقاومة عنيفة وأوجسوا خيفة من ترك دعاتها يجمعون العواطف حولها . خصوصاً إذا قام هذا الجمع على حشد قوى المسلمين وراء الترك أى وراء دولة الخلافة ، غير أن سواد المسلمين ببواعث شتى مال إلى هذا الاتجاه .

ومن ثم اقترنت فكرة الجامعة الإسلامية بفكرة الخلافة العثمانية ، ووجد المسلمون فى هذه الفكرة السبيل الوحيد لإنقاذهم من براثن الاستعمار الأوربى ،

واقتنع بهذه الفكرة الزعيم مصطفى كامل ، ورأى فى بقاء الدولة العلية يومئذ أمراً لازماً للتوازن الدولى ، لولا ما أصابها من ضعف جعل ممتلكاتها طعمة للاستعمار الأوربى .

أما الأوربيون فقد ابتدعوا لمحاربة قيام الجامعة الإسلامية فكرة الجامعة العربية التى دعا إليها كثير من كُتَّاب الغرب وساسته تخوفاً من الجامعة الإسلامية التى رأوا فيها الخطر الأكبر ، وأغرت هذه الفكرة كثيراً من المسلمين فراحوا يؤيدونها ويدعون لها دون أن يذكروا أنهم أخذوها عن الأوربيين ، وكان من هؤلاء السيد على يوسف صاحب (المؤيد) الذى كان متأثراً فى ذلك بأفكار الخديو عباس حلمى .

وبينما العالم الشرقى متأرجح بين هاتين الفكرتين إذ بـ « الجريدة » التى يحررها الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد تدعو إلى فكرة جديدة هى فكرة « الجامعة المصرية » وتأثرت الأذهان بهذه الفكرة إلى ما بعد عام ١٩٣٢ » .

وهذه الجامعة المصرية تقوم على أساس النزعة الفرعونية . وأن أهل هذه البلاد لا صلة لهم بعروبة ولا إسلام ، وهذا الكلام أوغَلُ فى الكفر من سابقه ، ولكنه بداهة قُرَّة عين الاستعمار ، وإن زعم قائلوه أنهم دعاة حرية واستقلال .

إنه استقلال نشتريه ببيع ديننا ، ونسيان ربنا ونبينا ، وقد قُضِى على هذه النزعة العفنة ، بيد أن ما أمَّله الصليبيون من ورائها ربطوه كَرَّة أخرى بمفهوم القومية العربية بعد إطراحها الإسلام .

ثم ظهرت من جديد فكرة الجامعة العربية ، ومع أنها نبعت مرة أخرى من الأطماع الإنجليزية إلا أن المصريين والشرقيين تحمسوا لها وحرصوا على الانتفاع بها ضد الاستعمار من دسائس الإنجليز .

وفى ذلك يقول الأستاذ فتحى رضوان :

« .. وتنبه مصطفى كامل إلى هذه المحاولة ، وأثبت أن نية بريطانيا لا تهدف

إلى إنشاء جامعة عربية للعرب ولمصلحة العرب ، بل جامعة عربية تعيش فى ظل انجلترا وتحت سلطان انجلترا .

وكان هذا التنبؤ من مصطفى كامل منذ أكثر من خمسين عاماً ، فتحقق ما تنبأ به وثبت أنه يجب على كافة الدول العربية أن تكافح النفوذ الأجنبى لتخلُصَ الجامعة العربية للعرب ، وتكون أداتهم فى تحقيق العزة والكرامة » .

إن الإنكليز الذين طالما حاربوا الإسلام ، رحبوا بقيام الجامعة العربية ، ظانين أنها سوف تكون أداة صالحة لاستقرار المنطقة على نحو يتمشى مع أهدافهم البعيدة .

لكننا نحن العرب رحبنا بقيام الجامعة لتخدم قضايانا ، وتُنمِّى وحدتنا لا لتخدم خصومنا وتُؤمِّن رغائبهم .

ويبدو أن القومية العربية وُلدت من فترة طويلة فى هذا الجو نفسه .

الغزاة الأجانب يحسبونها عوضاً عن الإسلام ، وصارفاً عن التفكير فيه .

والعرب لا يعرفون هذا ، ولا يصدقون سماسرة الاستعمار الذين يشرحون هذه القومية على أنها مقطوعة الصلات بالدين ، وعلى أنها مانعة من العود إليه والاستقاء منه .

وعدد كبير من المحدثين فى مفهوم هذه القومية يبغضون الإسلام ، ويستنكرون نُظمه المقررة ويتجهمون لأمته الكبيرة ، أى إنهم جيش للغزو الصليبى مُدَرَّب على قتال بنى جنسه كما تُدرَّب الكلاب على خدمة سادتها أحسن تدريب .

وهناك متحدثون فى المجتمع العربى لهم أمانة العلماء فى البحث ، وإن فاتتهم أحياناً مواقع الصواب فيما يكتبون .

وهؤلاء لا يستطيعون الإغضاء عَن مكانة الإسلام فى بناء المجتمع ، غير أنهم يتابعون غيرهم فى تحميل الإسلام أوزار ديانات أخرى ، ومن هنا يتسرب إلى كلامهم الخطأ .

كتب الدكتور أحمد سويلم العمرى « دراسات سياسية فى المجتمع العربى » .

ومع أن المؤلف العالم من أفضل الذين كتبوا فى هذه البحوث فقد قال عن وضع الدين فى المجتمع ما يأتى :

« ليس وضع الدين اليوم فى قوته وأثره كما كان قديماً ، إذ فقد الدين قوته — من حيث إنه عامل فى تكوين الشعوب والدول الحديثة — » .

هذا الكلام فى بلادنا ينصبُّ على الإسلام وحده ، فهو دين الكثرة الكاثرة من السكان .

لكن الرجل لما أراد الاستدلال على ما يقول أخذ يتحدث عن المسيحية ! فيقول :

« الدول اليوم عادة تفصل الكنيسة عن الدولة أو الدين عن الدنيا » .

وما لنا نحن المسلمين وهذا الفصل ؟

ثم يستطرد فيضرب الأمثال لهذا الفصل الذى وقع فى أوربا فيقول عن فرنسا :

وصدرت هناك قوانين سنة ١٩٠٥ التى فصلت نهائياً الكنيسة عن الدولة ، ولم يَعُدْ للدين علاقة بالتدريس فى مدارسها ، وقررت الطلاق وهو مخالف للكثلكة : وكذلك حرية الجنازات ، وكان مطلع قانون ٩ ديسمبر سنة ١٩٠٥ فى فرنسا ما يأتى :

« تضمن الجمهورية حرية المعتقدات » .

ويلاحظ فى هذه الحالة أن الأمر لا يقف عند حَدِّ احترام المعتقدات ، بل هى تتعهد بضمان هذه الحرية ، وهذا أقوى من مجرد الاحترام ، أى أنها تحمى هذه الحرية من الاعتداء عليها ، ويصبح موقفها إيجابياً فى فصل العقيدة عن السياسة والدولة .

ورغم أن التاج فى انكلترا يعتبر حامى حِمَى الدين وراعى العقيدة ، وللدولة كنيستها الرسمية : فإن حرية المعتقدات مكفولة أيضاً هناك ، وهذا هو الوضع فى

جل الدول الحديثة ، بما فيها مختلف الدول العربية والإسلامية التى تجعل نُصْبَ عينيها ضمان حرية العبادات تمشياً مع تعاليم العرب المستقاة من سماحة الإسلام وعيش الذميين فى دار الإسلام فى طمأنينة وأمان » .

نقول لكن ضمان حرية الاعتقاد والعبادة ليس اختراعاً لأوربا الحديثة .

إن هذا هو ديننا من أربعة عشر قرناً ، فإذا كان ذلك مستغرباً فى أرجاء العالم النصرانى القديم ، فليس هذا ذنباً يؤاخذ به الإسلام ، وبالتالى لا يصح أن يقول المؤلف :

« ولم يَعُدْ الدين اليوم شُغل الشعوب الشاغل أثناء كفاحها فى سبيل تكوين الدولة والنهوض بالمجتمع السياسى » .

والشعوب العربية على اختلاف ديارها تحترم حرية الرأى والعقيدة .

وفى الوقت نفسه تحافظ على تراثها الإسلامى ووحدتها العربية ، وهذا ما نصَّتْ عليه بعض الدساتير الحديثة للبلدان العربية : فجاء فى دستور مصر لسنة ١٩٥٦ قبل قيام الجمهورية العربية المتحدة فى مادته الأولى :

« مصر دولة عربية مستقلة ذات سيادة وهى جمهورية ديمقراطية . والشعب المصرى جزء من الأمة العربية » .

وجاء فى المادة الثالثة :

« الإسلام دين الدولة : واللغة العربية لغتها الرسمية » .

وجاء فى المادة السادسة :

« تكفل الدولة الحرية والأمن والطمأنينة وتكافؤ الفرص لجميع المصريين » .

وجاء فى المادة ٥٣ :

« حرية الاعتقاد مطلقة ، وتحمى الدولة حرية القيام بشعائر الأديان والعقائد

طبقاً للعادات المرعية فى مصر : على ألّا يُخِلَّ ذلك بالنظام العام أو ينافى الآداب » .

وجاء فى الدستور المؤقت لسنة ١٩٥٨ بمناسبة قيام الجمهورية العربية المتحدة بعد وحدة مصر وسورية : فى المادة الأولى :

« الدولة العربية المتحدة جمهورية ديمقراطية مستقلة ذات سيادة وشعبها جزء من الأمة العربية » .

وجاء فى المادة ٧ :

« المواطنون لدى القانون سواء : متساوون فى الحقوق والواجبات العامة : لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة » .

وجاء فى المادة ١٠ :

« الحريات مكفولة فى حدود القانون » .

وجاء فى دستور الباكستان (وهى دولة إسلامية) الذى صدر فى ٢٩ فبراير سنة ١٩٥٦ وعُطِّلَ فى ٥ أكتوبر سنة ١٩٥٨ فى الفصل الأول والمادة الأولى منه :

« تنشأ بالباكستان جمهورية (فدرالية) تُعرَفُ بالجمهورية الإسلامية الباكستانية .. » .

كما ضمنت المادة الثالثة عشر حرية المعتقدات . ونصت على أنه لن يجبر الفرد على تلقى دراسة دينية . أو حضور حفل دينى أو مباشرة عبادة ما لا تتفق مع دينه .

كما أباحت للجماعات والهيئات على اختلافها أن تباشر العبادات التى تروق لها ، ولم تغفل الدساتير العربية الأخرى أيضاً . كالدستور السورى فيما قبل الوحدة النص على أن دين الدولة الإسلام مع مراعاة حرية العبادات والمعتقدات .

قال : « وإذا كانت البلدان العربية قد اهتمت بالعروبة والإسلام فى بناء مجتمعها السياسى ، فذلك لأن الإسلام أحد أركان هذا المجتمع ، وهو فى صميم

عباداتها وحياتها ونظمها الاجتماعية ، وتكوين الأسرة ، وموقف الآباء من الأبناء ، وطاعة الأبناء للآباء ، ولكنها كذلك حافظت فى إصرار – شأنها شأن المجتمعات السياسية الحديثة والشعوب المتطورة – على ضرورة حرية المعتقدات » .

ونقول : ليست هذه استجابة للأطوار الحديثة فى النظم السياسية والاتجاهات العالمية بل هى المرجعية الإسلامية التى حُرِمَتْ منها أوربا حتى كرهت الدين وأهله .

إنها كما يقول المؤلف فى مكان آخر .

« إنها هى السياسة السمحاء التى طُبع بها الإسلام والتى لم يعرفها المجتمع الأوربى يوم كان يغرق فى لجج عميقة من المذابح » .

إن حرية العقيدة والعبادة قديمة لديها قِدَم الإسلام نفسه .

وشرائع الإسلام افترضت أن البيت قد يضم زوجة غير مسلمة ، وأن المجتمع قد يضم جيراناً غير مسلمين ، فبنت العلاقة ابتداء على المحاسنة والاحترام ، لا على المجافاة والاستهانة .

والحقيقة التى لا نرى بُدّاً من التصريح بها ، أن العالم لا يعرف أنكر ، ولا أخسّ ، ولا أشأمَ ، من مشاعر الأوربيين ضد مخالفيهم فى الدين أو المذهب ، اللهم إلا ما يُروَى عن البراهمة مع المنبوذين فى الهند .

والسبب فى ذلك أنه كلما ابتعد أصل الإيمان عن المنطق العقلى سلك طريقاً فى الحياة لا مكان معه لتفاهم أو اعتدال .

وذلك فى نظرنا سر المرارة التى سجلها التاريخ لأمثال هذه المنازعات الدينية وسر ما غصت به مجتمعات الغرب من ذكريات أسيفة جعلت القوم يحزمون أمرهم آخر المطاف ، ويُجرِّدون الكهنوت من سلطانه ، أى من أظافره !! .

ولكننا نتساءل مرة أخرى : وما لنا نحن وهذا كله ؟

إن الإسلام عندما شرع يتصل بالسلطات الخارجية الأخرى للأمم النصرانية كان يرسل إلى حكامها الرسائل مختومة بالآية الشريفة :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنا وَبَيْنكمُ أَلَّا نَعْبُدَ إلا اللهَ وَلَا نُشرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ ، فإنْ تَولَّوْا فقُولُوا آشْهَدُوا بِأَنَّا مسْلِمُون ﴾ (١) .

إنه لم يَقُلْ لهم :

فإن توليتم فعليكم اللعنة .

ولم يَقُلْ لهم :

إن توليتم فاستعدوا للمعركة .

بل قال لهم :

إن تولّيتم فاعلموا أننا لسنا معكم . إن لنا اعتقاداً آخر سنظل عليه .

وإذا كنا لا نحملكم على معتقدنا فدعوا مَنْ يشاء يدخل فيه ، ولا تضعوا العوائق أمامه .

ونحن فى كتاب « التعصب والتسامح » قد أوردنا نماذج كثيرة للمكاتبات والمعاهدات التى أنشأها الإسلام مع الأقطار الأخرى ، ولا بأس أن نورد هنا طرفاً من هذه الوثائق للأستاذ العميد محمد خلف الله نقتطفها من بحث له قُدِّم للمؤتمر الإسلامى المسيحى الذى انعقد فى الإسكندرية سنة ١٩٥٤ :

يقول الرسول فى كتابه إلى قيصر الروم :

« من محمد رسول الله إلى صاحب الروم ، إنى أدعوك إلى الإسلام ، فإن أسلمت فلكَ ما للمسلمين وعليك ما عليهم .

فإن لم تدخل فى الإسلام فأعْطِ الجزية » .

---

(١) آل عمران آية : ٦٤ .

ويطلب إليه آخر الكتاب ألَّا يحول بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية .

ويقول فى كتابه إلى أسقف أيلة وأهليها « إلى مريحنة بن رؤية وسروات أهل أيلة » .

سلم أنتم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وإنى لم أكن لأقاتلكم حتى أكتب إليكم . فأسلم أو أعط الجزية .

ويصله كتاب من المنذر بن ساوى يقول فيه :

أما بعد يارسول الله فإنى قرأتُ كتابك على أهل البحرين ، فمنهم مَنْ أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم مَنْ كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود فأحدِثْ فى ذلك أمرك .

فيرد عليه الرسول بكتاب فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى .

أما بعد : فإن كتابك جاءنى وسمعت ما فيه . فمَنْ صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ما لنا وعليه ما علينا ، ومن أبى فعليه الجزية » .

وعلى هذا سار خلفاء المسلمين فى معاملتهم للأمم المفتوحة ، فمن أراد من الرعية أن يبقى على دينه وَفَّروا له الجزية والأمن فى نفسه وماله وأماكن عبادته ، مادام يؤدى الضريبة التى فرضتها الدولة عليه لقاء هذا السلام الذى تهيئه له ، والرعاية التى ترعى بها مصالحه .

ومن الأمثلة الواضحة فى هذا ، الكتاب الذى كتبه الخليفة عمر لأهل إيلياء بعد فتح بيت المقدس فى السنة الخامسة عشرة من الهجرة وفيه يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل (إيلياء) من الأمان .

أعطاهم أماناً لأنفسهم ، وأموالهم وكنائسهم ، وصُلْبانهم ، وسقيمها ، وبريئها وسائر ملتها . أنه لا تُسكن كنائسهم ، ولا تُهدَم ، ولا ينقص منها ، ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شئ من أموالهم .

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يُعطَى أهل المدائن .. إلى أن يقول : « فإنه لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصد حصادهم . وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية » .

وكذلك فعل المسلمون حين فتحوا مصر ، فقد حسموا النزاع الذى كان قائماً بين مسيحي مصر ومسيحي بيزنطة على بعض التصورات الدينية ، وهيأوا لكل فريق الحرية أن يدين بما يشاء ووكلوا إلى البطريرك القبطى سياسة الطائفة وتدبير أمورها ، وإصلاح ما هدم من كنائسها فى أيام المقوقس .

ومن الكنائس القبطية المشهورة التى بُنيت فى العصر الإسلامى كنيسة مارجرجس بحلوان ، وكنيسة أبى مينا .

ومما قرره الباحثون أن أكبر فَرْق بين الامبراطورية الإسلامية وبين أوربا التى كانت كلها على المسيحية فى العصور الوسطى ، وجود عدد كبير من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين ، وأولئك هم أهل الذمة ، وإن الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغى أن يكون بها من وفاق أوجدت من أول الأمر نوعاً من التسامح الذى لم يكن معروفاً فى أوربا خلال العصور الوسطى .

ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان ، أى : دراسة الملل والنِّحَل على اختلافها ، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم .

ولم يكن التشريع الإسلامى يغلق دون أهل الذمة أىَّ باب من أبواب الأعمال وكانت قدمهم راسخة فى الصنائع التى تدر الأرباح الوافرة ، فكانوا صيارفة وتجاراً وأصحاب ضياع وأطباء .

بل إن أهل الذمة نظّموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة فى الشام مثلاً يهوداً ، على حين كان أكثر الأطباء والكُتّاب نصارى ، وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة ، وكان رؤساء اليهود جهابذتهم .

ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل فى شعائر أهل الذمة الدينية ، بل كان بعض الخلفاء يحضر مواكبهم وأعيادهم ، ويأمر بصيانتهم .

أما فى التقاضى فقد خلّتْ الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم ، والتى كان الرؤساء الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة .

أما فى شأن الجزية .

فيقول « آدم متز » فى كتابه (ص ٧٤ – ٧٥) : وكان أهل الذمة بحُكْم ما نالوه من تسامح المسلمين ودخولهم فى ذِمَّتهم وحمايتهم يدفعون الجزية ، كل واحد منهم بحسب قدرته .

وكانت الجزية أشبه بضريبة للدفاع الوطنى ، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح ، ولا يدفعها ذوو العاهات ، ولا المترهِّبون وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يَسَارٌ .

ولم يكن المسلمون بدعاً فى هذا .

فقد كان الروم يأخذون من اليهود والمجوس ديناراً فى السنة .

وكذلك فرض النصارى على المسلمين الجزية لما فتحوا بلادهم .

فإذا انتقلنا من شرق البلاد الإسلامية إلى غربها ، وجدنا منهج الحكم الإسلامى واحداً لا يتغير ، ووجدنا التسامح الدينى أساساً من أسس ذلك الحكم ، وهذه حقيقة يقررها مؤلفون مسيحيون . فيقول « ستانلى لين بول » مثلاً فى كتابه « قصة العرب فى أسبانيا » .

ثم أخذ الناس بعد قليل يشعرون بأنهم أفادوا من تغير الحكم .

فقد كان للأسبانيين أن يحتفظوا بشرائعهم وقضاتهم ، وعُيِّن لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات ، ويجمعون الضرائب ، ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف ، وأصبح سكان المدينة لا يُكلَّفون إلا الجزية والخراج – إن كانت لهم أرض تُزرع – بعد أن كانوا فى عهد القوط يحملون وحدهم عِبء الضرائب والأموال التى تُنفق على الدولة .. وكثرت الجزية على المخالفين فى الدين من النصارى واليهود .

أما ضريبة الأرض .. فإنها فُرِضَتْ بعدل ومساواة على النصارى واليهود والمسلمين جميعاً .

وأما التسامح الدينى فلم يدع للأسبانيين سبباً للشكوى ، فقد تركهم العرب يعبدون كما يشاءون من غير أن يضطهدوهم أو يلزموهم اعتناق عقيدة خاصة كما كان يفعل القوط باليهود ، وكان من أثر هذه المعاملة وذلك التسامح أن رضى المسيحيون بالنظام الجديد واعترفوا فى صراحة أنهم يُؤثِرون حكم العرب على حكم الإفرنج والقوط .

وقد جعل المستشرق الإنجليزى « السير توماس أرنولد » فكرة تسامح الإسلام مع رعاياه غير المسلمين هى الفكرة الرئيسية فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » وأورد فى شأنها كثيراً من النصوص والشواهد التاريخية ، وتتبع مظاهرها فى إقليم فارس وولايات بيزنطة ، وأشار بصيغة التشكيك إلى الروايات القليلة التى تناقضها من مثل ما أورده ابن العبرى فى تاريخه من أن الخليفة المهدى (١٥٨ – ١٦٩ هـ) رأى نفراً من تنوخ يقيمون بظهر حلب ، فلما علم أنهم من المسيحيين أمرهم – وهو فى سَوْرة الغضب – أن يعتنقوا الإسلام ، فأجابوا وكان عددهم خمسة آلاف شخص ، وآثر أحدهم الاستشهاد على الارتداد عن دينه [1] .

ويعلق أرنولد على أمثال هذه الروايات ، وعلى الطريقة التى تحوَّل بها السواد الأعظم من المسيحيين فى بلاد العرب الشمالية إلى الإسلام فيقول :

---

(١) خرافة صليبية على طريقة مؤرخيهم « رمتنى بدائها وانسلت » !.

ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم بالقوة عندما انضووا بادئ الأمر تحت لواء الحكم الإسلامى لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين .

ويبرز « أرنولد » فى كتابه ، ظاهر الخلافات المسيحية التى كانت متفشية قبل الإسلام بين النسطوريين واليعقوبيين ، والاضطهاد الذى كانت تصبه كل فرقة على الأخرى ويذهب إلى أن هذه الخلافات كانت عاملاً من العوامل التى مكّنت للإسلام ، وسهّلت تحول الكتابيين إليه .

وفى سماحة الإسلام يقول « جوستاف لوبون » :

« فهم الذين علّموا النصارى ، وإن شئت فقد حاولوا أن يُعلّموا النصارى كيف يكون التسامح الذى هو أثمن ما تصبو إليه الإنسانية » .

وقد بلغ من حِلْم عرب أسبانيا إزاء النصارى أنهم كانوا يسمحون لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية ! كمؤتمر أشبيلية النصرانى الذى عقد فى سنة ٧٨٢ ومؤتمر قرطبة النصرانى الذى عقد سنة ٨٥٢ .

ذلك ، وتعد بِيعُ النصارى الكثيرة التى بنوْهَا أيام الحكم العربى من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التى خضعت لسلطانهم .

وقد أسلم كثير من النصارى من غير إكراه ، ولم يسلموا طمعاً فى شئ ، وهم الذين استعربوا ، وكانوا هم واليهود مساوين للمسلمين ، وكانوا يتقلّدون مناصب الدولة كالمسلمين .

وقد كانت أسبانيا العربية البلد الأوربى الوحيد الذى كان اليهود يتمتعون فيه بحماية الدولة ورعايته ، وقد زاد عدد اليهود فى أسبانيا العربية كثيراً ، وكان عرب أسبانيا مع تسامحهم هذا يتصفون بنبل الأخلاق وبخلال الفروسية ، فكانوا يرحمون الضعفاء ، ويترفّقون بالمغلوبين ، ويقفون عند شروطهم ، ويقولون الصدق ، وما إلى ذلك من الخصال الحميدة التى اقتبسها الأوربيون منهم والتى كانت تؤثر فى نفوس الناس تأثيراً لا تؤثره الديانة .

ويصف الأستاذ « بابنجر » – وهو من المتخصصين فى العلوم الإسلامية ، وكان أستاذاً فى جامعة برلين – هذه الروح فيقول :

« إذا نظرنا إلى التاريخ الإسلامى منذ قيام الخلافة إلى اختفائها سنة ١٩٢٤ قررنا بلا تردد : أن الإسلام حيث ظهر ، وفى أى مكان استقر ، وضحت روحه السمحة فى نواحى المجتمع كلها ، هذه الروح البعيدة عن التعصب ، مع ما تحمله من رفق ، ومراعاة لعادات البلاد التى يحل فيها »[1].

* * *

ربما سأل سائل : ما هذه الجزية التى يأخذها الإسلام ؟ وبأى حق يطلبها من مخالفيه فى العقيدة ؟ أليس ذلك لوناً من الضغط المادى الكريه لا يسوغ بقاؤه وإن كان فى العصور السابقة أشرف وأيسر مما صنعه الصليبيون بأعدائهم ؟

وهذا تساؤل له براعته وله قيمته ؟

ونحن لا نطلب من موجهيه إلا قليلاً من الأناة يعرفون بها وجهة نظر الإسلام ، ولهم بعد ذلك ما يشاءون .

إن الجزية التى يأخذها الإسلام ليست ضريبة شاذة يُسمن بها أمته ويُنحِف بها خصومه .

وليست ضرباً من الكسب يتناوله القاعدون من العاملين ، والعادون من المنكسرين .

ويوم تكون الجزية كذلك فإن إلغاءها حَقٌّ ، واستنكارها مفهوم .

ولكن الجزية التى فرضها الإسلام على مَنْ انهزموا وهم يحاربونه لا تعدو أن تكون سهماً فى نفقات الدفاع العسكرى الذى يتحمَّله المسلمون وحدهم عن هؤلاء اليهود والنصارى والمجوس الذين آووهم ، وقرروا حمايتهم .

فالغُرْم الأكبر على المسلمين يسفكون دمهم ويفقدون مالهم على حين يبقى

(١) من بحث للدكتور أحمد سويلم العمرى .

أولئك جميعاً موفورى الدماء والأموال . عدا السهم التافه الذى يدفعونه باسم الجزية .

حكى ابن حزم فى مراتب الإجماع :

« أن مَنْ كان فى الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه . وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالسلاح ، ونموت دون ذلك صَوْناً لهم » !!

هل شهدت أعصار الدهر أشرف من هذا السلوك ؟

يجب أن نموت نحن المسلمين ذَوْداً عن النصارى واليهود والمجوس الذين يعيشون فى بلادنا ، ولا نُمكِّن أحداً من أنْ ينالهم بأذى !!

أفإذا أسهمَ أولئك الأقوام بدريهمات فى نفقات هذا الدفاع عنهم كان ذلك نهباً يقترفه الإسلام وتُوصَم به أمته ؟

وهل المعقول ألّا يدفعوا شيئاً قط ، ونفقد نحن النفس والنفيس ؟

قد نقول : لا ، ما نقصد هذا ، يحمل هؤلاء السلاح معكم كتفاً إلى كتف ، ويبذلون دمهم مع دمائكم دون تفرقة !! .

ونجيب : حبذا ذلك لو صَحَّ ! .

إن الرجال الشرفاء أمثال « بطريرك أنطاكية » الذى لجأ إلى دمشق لما زحفت الصليبية الغربية على الشرق الأوسط أهلٌ لكُلِّ ثقة .

ولكن كيف ينجح الدفاع المتكامل إذا وُجِد أمثال « الجنرال يعقوب » يعرض على الأعداء نفسه وصحبه ؟ أليس من حق أى دولة تحترم نفسها أن تعرف بمن تقاتل ؟ وأن تأخذ الحذر من بوادر الخيانة ، فإذا استيقنت من شرف المدافعين لم يَبْقَ مكان للجزية .

لكن الذى نقرره – ونحن محزونون – أن الغضب العنيف ضد الغزو الأوربى كاد يكون وَقْفاً على جماهير المسلمين ، ونفر محدود من النصارى العرب مما دعا

السيد رشيد سليم الخورى [1] أن يقول فى لبنان :

وكيفَ ألومُ فى وطنى الزمَانا ومنَّا ذله لا مِنْ سِوَانا ؟
ألسْنَا قدْ أهنَّاه فهانا وقلنا كُنْ فرنسياً فكَانا ؟

إذنْ فَلْيهننا نَيْلُ المرادِ

رَضِينَا « للتعصب » أنْ نهُونَا فأغمضنا على الضَّيْم العُيونا
نقولُ : المسلمون المسلمُونَا فنرميهم ونحنُ الخائِنُونا

نبيع بدرهمٍ مجدَ البلادِ

بربِّك قُلْ : متى لبنان ثَارَا ليدرك من عُلُوجِ الغربِ ثَاراً ؟
متى نفرتْ إلى السيفِ النصارى لِتغسلَ بالدم المسفوكِ عاراً ؟

وتحرز مرةً شرفَ الجهادِ

أتيناهُمْ بإنجيلِ المسيحِ فجاءُونا بآلاتِ الفُتُوح
أدل يارب مِنْ روح لروح فقدْ ضاعَ الجميلُ مع القبيحِ

كما ضاعتْ جواهِرُ فى سمادِ

إن الجزية ما تؤخذ إلا من المعتدين والمريبين فى مقابل الدفاع عنهم ، فإذا انقطعت أسبابها انقطعت معها .

* * *

أظنه قد استبان لكل ذى لُبٍّ أن الإسلام يسعُ إلى جانبه ديانات أخرى .

وأن تسويته بغيره من الأديان والمذاهب التى تأبى على غيرها حق الحياة معها تسوية جائرة باطلة لا يشهد لها ماضٍ ولا حاضر .

---

(١) الشاعر رشيد سليم الخورى من مسيحى لبنان الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية واستقر بهم المقام فى البرازيل ويُعرف بالشاعر القروى .

وأن إبعاده عن المجتمع بهذا الاتهام لا مساغ له أبداً .

وأن تفسير القومية العربية بأنها شيء مجرد عن الدين ، أو بلفظ واضح شيء بعيد عن الإسلام ليس فى حقيقته إلا احتيال ملحدين وعبث مبطلين .

إن ما يريده هؤلاء الناس لا يخفى علينا .

إنهم لا يريدون عروبة ، كما أنهم لا يريدون إسلاماً .

إنهم يريدون الحياة فى ظل نظام مُرقَّع .

يتسول قانوناً للعقوبات من فرنسا .

وآخر تجارياً من انجلترا .

وإصلاحاً اجتماعياً من روسيا .

وتقليداً خُلقياً من أمريكا .

وطعاماً شرقياً على هيئة أوربية .

وهذا الخليط المستجلب من كل أفق يمكن بزعم زاعم أن يلبس رداء عربياً ثم يطلق عليه اسم « القومية العربية » !

وإلا فهل ترى أسمج من مخلوق يقول ذلك :

دع الإسلام لتكون عربياً !

ارْمِ نصف آيات القرآن فى البحر لتكون عربياً !

لا تذكر شيئاً من شرائع الإسلام للأسرة أو المجتمع أو الدولة لتكون عربياً !

إن العروبة فى نظر هؤلاء انتماء لكل نِحْلة ، والتقاط من كل مائدة ، واصطياد للأفكار والتقاليد من كل بلد .

شيء واحد محظور على العروبة فى نظر أولئك الناس .

أن تنتسب إلى ولى نعمتها الفذّ .

أو تلوذ بسياج بقائها الخالد .

أو تقترن بالإسلام !

ومن هنا تصدر رسائل ، وتُلْقى خطب ، وتُولَّف كتب ، تتساوق جميعاً نحو هذه الغاية الوضيعة ، جَعْل القومية العربية لا إسلام لها !

وبديهى أن تتظاهر شتى القوى فى هذا الميدان ، الوجودية ، والشيوعية ، والصليبية ، والصهيونية ، والبوذية ، والطورانية .. الخ هذه النزعات التى تسخر عشرات الأقلام والألسنة لتجعل العرب يصدقون هذه الخرافة ، ويتصورون العروبة شيئاً آخر لا صلة له من قريب أو بعيد بالإسلام .

المراد باختصار أن يرتد العرب عن الإسلام ، سواء كان هذا جزءاً من مفهوم العروبة أو شيئاً آخر غيرها ، ولكنها ترتبط به ويرتبط بها .

والجواب أيضاً باختصار :

نحن مسلمون ؛ وعرب ، ولن نسمح للصٍّ أن يسرق إيماننا ، أو يسلبنا ضمائرنا وشرائعنا .

لو كان لدى أولئك العروبيين قدرٌ من إخلاص لعروبتهم ما تواصوْا بجحد الإسلام فى هذه الأيام العصيبة التى تمر بها العروبة .

أتراهم يجهلون أن السرطان الذى نشب بأرضهم – حين أنشئت إسرائيل – يعتمد فى استئصالهم على سلاح مزدوج ، معنوى أساسه الدين اليهودى ، ومادى قوامه الدمار الصليبى ؟

إن الدين عميق الآثار فى تعبئة القوى وشحذ العزائم ، فلمصلحة مَنْ يزداد سلطان الدين فى إسرائيل ، وتتنادى الجماهير باسمه بين آسيا وأمريكا ، على حين يخفت صوت الإسلام بين العرب ، ويقال لهم : قوميتكم دم لا دين ، وجنس لا شريعة ؟

ويوم يلتقى الجمعان ، هذا مزلزل اليقين نتيجة كتابات المنافقين ، وهذا مدعوم الإيمان نتيجة توجيهات اليهود .

فعن أىِّ عُقْبى سوف تتمحض المعركة .

إنها عُقْبى يعمل لها اليهود ، وتؤتيهم أطيب الثمر .

ولذلك ما أشك فى أن هؤلاء العروبيين الحانقين على الإسلام أُجَراء لأعداء العروبة والإسلام .

ولأمر ما لمعت فى سماء القومية هذه الأسماء « أنطون سعادة » « قسطنطين زريق » « ميشيل عفلق » ! . والأخيران من زعماء العروبة وفلاسفتها ! .

ولو كان هؤلاء – مع نصرانيتهم – عرباً ما أكنُّوا هذا الحقد كله على دين شرَّف جنسهم ورفع رأسهم .

وإنك لَتدرك مبلغ الجريمة فى تجريد العروبة من الإسلام حين تعلم أن إسرائيل لا تعتمد على اليهودية وحدها فى بناء جيل يحارب عن عقيدة متغلغلة ، بل تضم إلى ذلك المسيحية !

ولا يسبقن إلى ذهنك أنِّى أعنى بالمسيحية النشاط الصليبى فى ميدان السياسة ، بل أعنى النشاط الدينى فى ميدان التبشير !

تسأل كيف هذا !

هاك البيان :

جاء فى كتاب « فلسطين بين نارين » الذى صدر للأستاذ « إبراهيم الخورى » أن قسيسين من اليهود يديرون الكنائس المسيحية بعد تنصُّرهم، وعلمهم أن للقسس نفوذاً كبيراً على الشعب الانكليزى ، وعلى النواب واللوردات .

فقد عمل اليهود على الاستفادة من ذلك المركز العظيم ، فقدَّموا عدداً من الشبيبة اليهودية الذكية لاعتناق الدين المسيحى!

قال الأستاذ الخورى :

ولقد عرفنا فى إحدى الكبرى فى الشرق جماعة من القسس جاءت للتبشير بالمسيحية البروتستانتية ، فكانت نسبة اليهود من أولئك القسس ثلاثة من خمسة،

أى كل ثلاثة قسس من اليهود يقابلهم اثنان من المسيحيين فقط !

وكان أحد القسس الذين جاءوا للتبشير فلسطينياً ، وكان أهله يقيمون فى تل أبيب نفسها .

يقول المؤلف :

فما على حُماة الكنيسة البروتستانتية إلّا أن يتدبروا أمرهم ، ويحموا كنيستهم من الدخلاء عليها ، الأعداء لها ولأهلها .

ثم يقول هذا المؤلف المسيحى :

بينا تجد رسالة السيد المسيح تبشر بالمحبة والسلام ، وتقوم على تفهم الإنجيل ، نرى أولئك القسس يدعون إلى التوراة التى بين أيديهم وفيها من مبادئ السفك للدماء ، وإحراق المدن ، وقتل النساء والأطفال ، ما ينافى الدعوة المسيحية الأصلية » .

أقول[1]: وهذا هو الذى فعلته الصهيونية فى فلسطين ، فقد ذبحوا الشيوخ والنساء والأطفال ، والمرضى ، والعجزة ، وبقروا بطون النساء الحوامل فى « دير ياسين » « وقبية » « ونحالين » من دون حرب ولا قتال ، وطردوا بسلاح إحدى الدول الكبرى مليون عربى من بيوتهم ومزارعهم ودوابهم وبلادهم ، وتركوهم مشرَّدين فى الأمصار .

فأين العدل فى هيئة الأمم ، وأين السلام فى الأرض ؟

إنْ دامَ هذَا ولم تُحدثْ له غير لم يُبْك ميت ولم يُفرح بمولود

* * *

المصالح المشتركة :

وهى باعث معقول على ائتلاف الناس وتكوين المجتمعات ..

وهذا الباعث مظهر لعاطفة التعاون، وغريزة التجمع ، فإن الإنسان بطبيعة

(١) من بحث للأستاذ محمد بهجت البيطار .

خلقه يصدف عن العيش وحده ، ولو رغب العزلة ما استطاع لحاجته الماسة إلى خدمة الآخرين .

ولو أن المرء تأمل فى وجبة طعام يتناولها لوجدها مؤلفة من جملة عناصر لم تأخذ صورتها الأخيرة بين يديه ، وتتهيأ لارتفاقه إلا بعد أن أسهم عشرات الناس فى ذلك ...

فإذا برزت عدة مصالح مهمة بين قبيل من الناس ، مهدت لإقامة وحدة بينهم يشعر كل فرد أنه مسئول عن رعايتها .

وعلى قدر ما فى هذه المصالح من خطر ووزن ، يكون الحرص على استدامتها والدفاع عنها .

والعرب ـ من قديم ـ كانوا ينخلعون من أثرتهم ويفنون فى القبيلة التى تمثل مصالحهم المادية والأدبية ، وقد بلغ من شدة الذوبان فى الكيان العام أن كانت القبيلة كلها تغرم ما يجنى المنتسب إليها ، وتشترك فى دفع الدية عنه .

وقد ذهب عهد القبيلة ، كما انقضى عصر العصبيات الصغيرة .

ومنذ احتضن العرب رسالة الإسلام ، وانتشرت جموعهم فى بقاع شتى ، دخلت مصالحهم الجامعة فى طور جديد ، طور يفرض عليهم وحدة إجتماعية وسياسية ، واقتصادية ، وثقافية ، تَلُمُّ شملهم ، وتحمى حقيقتهم .

والأجزاء التى يتكون منها الوطن العربى يكمل بعضها بعضاً ، وتكفل له كل حاجاته .

كأنها جميعاً ملامح وجه ما تجمل قسماته إلا باستوائها ، أو مشاعر جسم وأعضاؤه . فما يستطيع السعى ولا الحس إلا بتعاونها وائتلافها .

وعندما قطَّع الاستعمار هذه الأمة أمماً ، فرَّق بين اليد وأختها ، فما تستطيع أحدهما أن تصفق ، وباعد بين السمع والبصر ، وبينهما جميعاً والقلب فكان هذا التمزيق إبطالاً لكل مصلحة مرتقبة .

ثم كان ـ بعد ـ إحباطاً لأى جهد يمكن بذله لإنجاح رسالتنا العظيمة .

فمن ناحية السكان اكتظ الاقليم المصرى بستة وعشرين مليوناً ضاقت بهم الرقعة الخصبة ، على حين تتطلب الأرض الخصبة فى العراق والسودان وليبيا أضعاف السكان الموجودين الآن .

فعزَّ على الأولين الغنى ، وبقيت مساحات شاسعة من أرجاء الوطن العربى غفلاً لا تظفر بمن يستثمرها ويعمرها .

وفى الوقت الذى صنع الاستعمار فيه دولاً بفضول من صدقاته ، لأنه ليس لها مقومات الدولة ، صنع من بعض المناطق المتخمة بالثراء دولاً أو حكومات خاصة ، وجمد لها أموالاً طائلة عنده كالكويت مثلاً .

فانظر كيف يخلق دولاً لا مال لها وكيف يمنع المناطق ذات المال من الامتداد فى مجالها الطبيعى ثم يأخذ مالها وديعة عنده !؟

وقد لفتنا النظر فيما مضى إلى أن الوطن العربى كله جسد واحد من الناحية العسكرية .

فاحتلال ليبيا يهدد بلاد المغرب كلها ووادى النيل .

واحتلال فلسطين يهدد دمشق ، وبغداد ، ومكة ، والمدينة .

إن المصالح المشتركة لهذا الوطن تصرخ بضرورة إقامة مجتمعه على أساس الوحدة الشاملة .

ونريد أن نعرف القالب الذى نفرغ فيه تلك الوحدة ونضمن به تلك المصالح ، وأمامنا ، فى هذا العصر صور عديدة لتجمع الشعوب على أهداف روحية ، وسياسية ، وعسكرية ، واقتصادية .

ونستطيع الموازنة بين مختلف أشكال الوحدة ، واختيار ما يناسب وطننا العربى الكبير منها .

* * *

هناك ما يسمى « بالكومنولث » أو مجموعة من الشعوب الانجليزية ، وهو

حزام مرن غريب ضَمَّ أقطاراً من أوروبا ، وأمريكا ، وآسيا ، وإفريقيا ، واستراليا .

وداخل هذا الحزام ألوان من الأديان والمذاهب ، وإن كانت قبلته الأولى « لندن » ولغته الأولى الانجليزية ، ومحور نشاطه المصالح المادية لهذه الحزم المتباينة من الخلائق .

وهناك ما يسمى « بحلف الأطلسى » وهو اتحاد عسكرى وحسب للأكذوبة التى تُسمَّى « دول العالم الحر » .

ومهمة هذا الاتحاد مواجهة التحدى الشيوعى .

وأسلحته الآن تقطع رقاب المسلمين فى الجزائر ، لأن دول هذا الحلف لا يربطها مثل أعلى له قيمة ، وإنما يجمعها خوفها على ضياع مكاسبها الحرام فى المستعمرات .

ولعلها ترى الإسلام أخطر على مظالمها من الشيوعية ..

وهنا « الولايات المتحدة الأمريكية » وهى تقوم على حكم مركزى فى جمهورية رئاسية ، وإدارات محلية ، تتمتع بحرية كبيرة فى الشئون الخاصة لكل ولاية .

وهناك جمهوريات « الاتحاد السوفيتى » وهى فى الحقيقة دولة واحدة ، لها نظامها الاستبدادى المغلق ، وإن انقسمت وحدات إقليمية ، وفق اعتبارات جغرافية وإنتاجية .

ونحن العرب ، ننتشر فوق رقعة هائلة من الأرض ، تُعدُّ أخطر بقاع الدنيا .

إن أحشاء العالم كله فى أيدينا .

ومفاتيح بَرِّه وبحره لدينا .

وفرص الاتصال بجماهير البشر أيسر ما تكون لنا وحدنا .

وحاجة الأقطار الأخرى إلينا أشد من حاجتنا إليهم .

وتلك كلها ميزات يسألنا الله عنها ، ماذا أفدْناَ منها ؟ وكيف تصرفنا فيها ؟ وكم نفعنا العالمين برسالتنا فى وطن نُشرف منه على أرجاء العالمين ؟

ونحن فى هذه السطور لا نقترح وحدة معينة للوطن العربى الذى يضارع روسيا والصين ، والولايات المتحدة ودول الأطلسى مجتمعة .

ربما صلح لنا تكوين ولايات متحدة عربية ، أو تكوين نظام على غرار الدول الدائرة فى الفلك الانجليزى ، أو المزج بين عدة أنظمة لإيجاد « شكل عام » للوحدة التى ترعى صوالحنا وتساند رسالتنا .

أيًّا ما كان الأمر فلا بُدَّ من وضع هذه الحقائق نُصْب أعيننا :

(أ) طرد عصابات الاحتلال كلها وغسل البلاد بعدها غسلاً شديداً لمحو آثارها كافة .

(ب) محو الحدود السياسية الملفقة التى رسمها الأجانب الغزاة ، وإعادة الأواصر التى تخلط بين الأهلين وتجعلهم ينظرون إلى أنفسهم على أساس الأخوة الجامعة لا فرق بين مصرى وفلسطينى ، ولا بين شامى ومغربى ، ولا بين سودانى وصومالى أو عراقى ونجدى .

(جـ) سحق العصبيات التى تحاول استبقاء مآثر الجاهلية ، والتى تدعى لنفسها حقاً فى سيادة ، أو وراثة لملك ، وتمهيد السبل امام الكفايات كلها لخدمة أمتها بالإخلاص والإنتاج .

(د) الاستفادة من دفائن وخيرات الوطن العربى فى خلق مقدرة مالية متفوقة تنتعش بها الجماهير ، ويتجدد بها العمران .

(هـ) إعادة البناء الروحى والثقافى لأمة لا تزال تعتبر فى بواكير يقظة بعد غيبوبة طويلة ورقاد عميق .

لقد كنا دولة واحدة ، وأمة واحدة ، وأرضاً واحدة ، فيجب أن نعود كما كنا ، وأن نزيح كل العوائق التى تعترض بعثنا ، ونشاطنا ..

إن الأوضاع القائمة هى النتائج التى توصلت إليها سياسة الاستعمار كى تفسد

علينا حياتنا ، وتحول بيننا وبين رسالتنا ، وهى أوضاع لا يُمارى فى ضرورة الانتهاء منها .

* * *

والمصالح المشتركة تعتبر دوافع مادية تافهة ـ بل وضيعة أحياناً ـ إذا لم تكن مصحوبة بهدف سامٍ تُسخَّر له وتُدرك به .

هَبْ قبيلاً من الناس أمكنته ظروف مواتية ومصالح مرعية أن ينال مستوى من العيش المادى لا نظير له ، ما قيمة ذلك ؟ إذا كان كافراً بربه ، جاحداً لحكمه ، منكراً للقائه .

« أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعناهُم سِنِينَ . ثم جَاءَهمْ مَا كانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنى عَنهُم ما كانُوا يُمتَّعُونَ »[1]

ومن ثَمَّ فكل محاولة لتجميع المصالح المشتركة على أساس من الإلحاد والتحلل ، ينبغى أن تُزدَرى بقوة ، وأن يُعرفَ معرفة اليقين أن حَتْفَ الأمة العربية فى نجاح تلك المحاولات المجنونة .

« وَمَا أَهْلكنْا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنذِرُونَ . ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ »[2].

إن الإسلام هو الحبل الذى يحزم تلك المصالح ، ويحدو الجماهير فى كل بلد كى تعمل لها وتستفيد منها .

وهذا الإسلام هو الشىء الوحيد الذى يصرف دعاة الإقليمية عن عصبيتهم ، ويبعثهم بحماس إلى أن يندمجوا فى غيرهم .

ونحن ندرك أن الأعباء تكاثرت فى هذه الأعصار على الحكومات ، وأن الدائرة التى تعمل فيها الآن أوسع ألف مرة من الدائرة التى كانت تعمل فيها السلطات الحاكمة فى قرون مضت .

---

(١) الشعراء آيات : ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٢) الشعراء آيات : ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

وربما قيل :

إن المخاطرة بمصالح الشعوب أن تُناطَ شئونها بحكومة واحدة فى أرجاء هذا الوطن الفسيح .

ونحن نسارع إلى الإجابة بأن هذه الحكومات يجب أن تبقى فى شكل إدارات محلية ذات صلاحية مطلقة لمباشرة ما تملك الآن عمله لمصالح الأفراد والجماعات .

أما الحكومة المركزية للوطن العربى أجمع فهى محور شئونه العليا من مادية وروحية .

وبديهى أن تكون إسلامية ، وأن تكون بالنسبة إلى مسلمى المشارق والمغارب بديلاً عن الخلافة الغاربة ، إلى أن يلتقى المسلمون على كلمة سواء فى هذا الأمر الجلل .

وأظن ائتمار الأديان الأخرى بهم وإضمارها السوء لدينهم سوف يعجلهم إلى بحث هذا الموضوع فى وقت وشيك ..

* * *

الطبيعة ـ كما رأيت ـ جعلت أجزاء الوطن العربى فقيراً بعضها إلى البعض الآخر فقر الجسم إلى أعضائه وحواسه .

وإذا كانت الطبيعة قد وحدت مصالح هذا الوطن ، فإن الإسلام وحد تاريخه وجعل أنباءه الماضية متشابكة متماسكة ينتظمها سجل واحد ، وتستوعبها صحائف واحدة ، لا فرق بين إقليم وإقليم ، وشعب وشعب .

ويشبه هذا ما صنعه « مينا » فى تاريخ مصر القديم .

فقد جعل من الوجهين البحرى والقبلى دولة واحدة لافِكَاك بين شطريها ، بل لا معنى لتصور شطر منفرد .

ولئن كان سخفاً ما يخطر إلا ببال الحمقى أن نتصور دولة فى أحد الوجهين ، إن هذا السخف قد وقع نظيره للأسف ، حين مزق الاستعمار بلدان الوطن العربى وجعل من كل بلد دولة ، وفق ما أملى الهوى ، وصنع الحقد .

إن الماضى الذى ضمَّه تاريخ واحد ، هو نموذج المستقبل الذى يجب أن ننسج نحن تاريخه على منوال أسلافنا الكبار .

من أجل ذلك ينبغى أن نسرع إلى تصحيح الواقع المنحرف ، مستهدين بمبادىء الإسلام فى وَصْل ما انقطع من أمجادنا ، ونظم ما انتقض من مصالحنا .

وزيادة فى شَرح هذه القضية الجليلة ، وتبياناً لدور الإسلام فى بناء مستقبلنا على قواعدنا الأولى نذكر كلمة لشيخ المؤرخين فى هذا العصر . الأستاذ « محمد شفيق غربال » جاء فيها :

« الإسلام دين وجامعة وثقافة ، والعروبة صورة خاصة من الجامعة الإسلامية والثقافة الإسلامية ، وهذه المدلولات ظاهرة فى التاريخ وفى الواقع » .

فالإسلام دين يصل الناس بالله .

وهو جامعة ربطت بين شتى الشعوب الإسلامية . وتلك الجامعة لم تقتض ولا تقتضى وجود الإدارة أو السلطة المركزية ــ كما نفهمها ــ بل إن أقاليم العالم الإسلامى حتى فى العصور الأولى للخلافة الإسلامية تمتعت فى الواقع بمقدار من الحرية مكّنها من الانفراد بحياة إقليمية خصبة مثمرة .

والإسلام أيضاً ثقافة بمعنى أنه « طريقة حياة » أو كما يقول السلف « آداب » .

وقد شرح ذلك ابن خلدون فى قوله : « إن الحضر لهم آداب فى أحوالهم ، فى المعاش والمسكن والبناء ، وأمور الدين والدنيا ، وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم وجميع تصرفاتهم ، فلهم فى ذلك آداب يوقف عندها فى جميع ما يتناولونه أو يتلبسون به من أخذ وترك حتى كأنها حدود لا تتعدى » .

فالحياة الإسلامية ثقافة بهذا المعنى الشامل لأمور الدين والدنيا .

وكانت هذه الثقافة من صنع الشعوبَ الإسلامية ، ومن عناصرها ما يرجع لأحوال الشعوب قبل الإسلام ، ومنها ما يرجع لما اقتضته حاجات تطورها ، إلا أن تلك العناصر تنطبع جميعاً بالطابع الإسلامى .

وبناء على هذا تنوعت الثقافة الإسلامية تنوعاً عظيماً.

إذ هى فى الأندلس تختلف مثلاً عنها فى الهند .

وهى فى الغابات أو المراعى أو السواحل الإفريقية تختلف عنها فى الشام أو فى العراق .

ولكننا نجد من وراء ذلك التنوع الطابع الإسلامى المشترك الذى أشرنا اليه وكان بناء الثقافة الإسلامية على هذا النحو من أعجب فصول التاريخ الإنسانى وأعظمها فهى ، ثقافة واسعة سمحة ، مكّنَتْ الشعوب التى عملت بها من أن تجارى مزاجها الخاص أو عبقريتها القومية مع اعتناقها الإسلامى .

وقبلتها شعوب على درجات متفاوتة من الحضارة ، أو كانت تنتسب لسلالات بشرية مختلفة ، أو لأصول تاريخية متباعدة ، فقبلها الحضرى والبدوى ، وقبلها السامى والحامى والآرى ، ونَعِم بها ذو العقل البدائى كما نَعِم بها ذو العقل الراقى ، وهكذا .

ووجد فيها الزاهد ما يغنيه ، كما وجد فيها المقبل على شئون دنياه ما يفى بإقباله وفيها العناصر التى تُرضى المتصوف والعناصر التى ترضى الفقيه .

ولا يقل عن هذا كله خطراً ، أن المجتمع الإسلامى أفسح مكاناً لغير المسلمين كانوا فيه غير غرباء فهو مجتمعهم – والثقافة الإسلامية ثقافتهم .

وقد يقول قائل :

إن الثقافة الأوروبية الحاضرة يشترك فيها أصحاب الأديان المختلفة وهذا صحيح ، ولكن الثقافة الأوروبية استطاعت أن تقبلهم بعد أن تخلت عن نصرانيتها .

وهذا فى نظر العارفين سر بَلْواها .

ومما لاشك فيه أن العروبة كانت دائماً صورة متميزة من صور الثقافة الإسلامية ولكن الذى يهمنا الآن هو عروبة العهد الحاضر . كما يهمنا البحث فى شبهة خطرت وتخطر على أذهان كثير من الناس ، ألا وهى :

هل يوجد تعارض بين الحركة العربية والجامعة الإسلامية؟

وهذا على اعتبار أن الحركة العربية تقوم على أساس العصبية القومية اللادينية وأن الجامعة الإسلامية تقوم بحكم الاسم على الأساس الدينى .

وقد أجاب الأستاذ المؤرخ على هذا التساؤل إجابة مفصلة .

ويعنينا من شرحه الوافى بيانه :

أن العروبة لم تنشأ عن عصبية قومية ، وأن هذه الحركة المشهودة نتيجة عوامل طرأت على الأمة الإسلامية الكبرى عقب حركات الغزو التى اجتاحتها من الشرق والغرب ، والتى انتهت بسيطرة الأوربيين على أغلب البلاد الإسلامية .

وقد استفاق المسلمون فى شتى الأنحاء بعد كبوتهم الأخيرة ، وأخذ كل فريق منهم يكافح لتحرير موطنه من العدو الذى غلب عليه .

العرب وغير العرب فى هذا الكفاح سواء .

فإذا كانت الظروف الطارئة شغلت كل مجاهد مصلح عن صاحبه مؤقتاً فليس معنى هذا أنه نسى أخاه وأقبل على نفسه ، أو نسى الإسلام وأقبل على قومه .

إن الكفاح العربى ينبثق من المعين الذى ينبثق من كفاح الأحرار فى شتى الأماكن الإسلامية الأخرى.

أى أن القومية العربية ما تجردت عن الدين ، ولن تتجرد عنه .

ذلك منطق الواقع الذى لا مساغ لنكرانه .

وربما كان هناك نفر من الزعماء لا إيمان لهم ، وربما كانت البرامج التى يصيحون بها لا دين لها ، بَيْدَ أن ذلك لا يعنى تجاهل واقع أمة حريصة على إسلامها ، تنبعث عنه وتستجيب للدعاة باسمه .

وقال الأستاذ المؤرخ آخر مقاله :

« قد يظن ظَانٌّ أن اختلاف العرب ديناً يقتضى تجريد حركتهم من عنصر

الدين ، حرصاً على جمع الكلمة ، ومجاراة للقومية الحديثة التى خلعت ثوب الدين عنها .

وهذا وهم لأنه :

أولاً : يناقض ما أثبته التاريخ من مشاركة بين المسلمين وغير المسلمين فى بناء الحركة الاستقلالية .

وثانياً : لأنه يعطل المصلحة الكبرى ، فى جمع الكلمة على إصلاح دينى ، إسلامى ومسيحى ، يُصدِّر نزعات الإلحاد والمادية .

والغريب أن هذا الكلام المعتدل ، الذى يوصى بتعاون المسيحية والإسلام على إقامة سدود تحول دون تسرب الفسوق والإلحاد لم يَلْقَ التسليم الواجب ، بل انبرى الأستاذ ساطع الحصرى للرد عليه .

ماذا يريد الأستاذ ساطع ؟

لقد كتب كلاماً عليلاً تحت عنوان « العروبة أولاً » !! يزعم فيه أن العلم انتصر على الدين ثم انفصل عنه ، وبالتالى يطلب إبعاد الدين ، أو تأخير مرتبته لتكون العروبة أولاً .

والصراع بين العلم والدين شئ حدث فى أوروبا ، حدث بين كهان الكنائس والأديرة وبين طلائع البحث والمعرفة .

فما الذى نقل هذه الحكاية إلى بلادنا ، ورمى بها تاريخنا ؟ وكيف طوعت للأستاذ الحصرى نفسه ، فقاس تاريخاً على تاريخ ، ودِيناً على دين؟

ثم ما معنى أن تكون العروبة أولاً ؟

هل يطلب من المسلم أن يطوى شريعته فلا يذكر منها قانوناً ، ليكون عربياً.

أو يدع عقيدته فى مَهبِّ الرياح ، وبين يدى سلطات ملحدة ، أو متجددة ليكون عربياً ؟؟

وما الدين الذى يبقى بعد ذلك فى عالم مشحون بالتعصب حتى للوثنية ؟

الحق أن كلمة العروبة أولاً ، لا معنى لها إلا الجاهلية أولاً .

وأن قومية تؤخر تعاليم الاسلام ، وتُقدِّم عليها أى شيء آخر هى جاهلية حديثة وأن العروبة الصحيحة براء من هذا الكلام .

obeikandl.com